الباب الرابع

تنمية التعليم في المساجد والكتاتيب واثره في بناء المجتمع

١,٤ تمهيد
٢,٤ دور المساجد في الحفاظ على تنمية الحضارة الإسلامية
٣,٤ اثر المساجد في تعليم الصبيان وتكوينهم
٤,٤ الإهتمام بالحفاظ على التراث الإسلامي للتعليم في المساجد
٥,٤ اثر التعليم في تنمية الحضارة الإسلامية
٦,٤ دور المساجد والكتاتيب في تنمية التعليم
٧,٤ شمول وظائف التعليم في المساجد لمصالح الدنيا والآخرة
٨,٤ آداب التعليم وتقاليده

١,٤ تمهيد

يعدّ موضوع التنمية التعليمية من أهم المواضيع التي يشغل الناس أفراداً وجماعات ، شعوباً وحكومات ، والسبب في ذلك أنّ النّاس كلّهم يسعون جاهدين للتنمية والحضارة التعليمية ، كلّ على شاكلته ، ولا يغفل عنها إلاّ من لا خلاق له في الدنيا ولا في الآخرة.

فالهدف الأساس للتنمية والحضارة التعليمية هو تحسين حياة البشر والازدياد من ذلك على حسب قدرات الناس وعزائم كلّ فرد ، وعلى قدر أهل العزم تكون التنمية.

ومن ثَمّ، فلا غرابة أنْ تكون التنمية التعليمية في حقيقتها عملية حضارية للتعليم ، لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته ، وهي أيضاً بناء للإنسان وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن تسخيرها ، بحيث تعود بالنفع للمجتمعات الإنسانيّة ، دون المساس بسعادتها وأمنها.

ونظراً لأهمية التنمية التعليمية فإنها تشغل حيّزاً كبيراً من كتابات المهتمين بأمر التطوير والرقي والازدهار والنهضة في المجتمعات الإنسانيّة ، بل إنّ الشعوب التي حققت تطوراً وازدهاراً وشهدت نهضة كبيرة في عصرنا ، لا تنفك عن الاهتمام بأمر التنمية التعليمية، اهتماماً بكيفية الزيادة في حجمها ، كماً وكيفاً ، والمحافظة عليها أيضاً ولو بحجبها عن الآخرين.

فضلاً عن ذلك ، فإنّ النهضة الحضارية التعليمية التي تعدّ مطمحاً أساساً لدى المجتمع الإسلامي ، لا تتحقق إلا عن طريق التنمية.

إذن ، فليس ثمة خلاف حول أهمية التنمية وجدواها في تحقيق النهضة التعليمية وحصول تطور لدى شعوب العالم الإسلامي ، وسنوضح التنمية الحضارية للتعليم في المساجد والكتاتيب وكذلك اثره في بناء المجتمع وحفاظه على التراث الإسلامي من خلال المنابع التعليمية الأصيلة للعهد النبوي .

٢,٤ دور المساجد في الحفاظ على تنمية الحضارة الإسلامية

١,٢,٤ تنمية من الناحية التعليمية

المسجد في المجتمع الإسلامي له أهمية كبرى ودور عظيم في تنمية المجتمع وترشيده للتعليم ، ولا يقل هذا الدور في أهميته عن أثر المسجد في تكوين الفرد المسلم ، بل إن المسجد ميدان تعليم وتطبيق في لحظة واحدة ، ميدان تعلم حيث يتعلم المسلم فيه كيف يحترم شعور الآخرين وكيف ينضبط في الصف مع المصلين ، وباهتمامه بالصلاة تعليم له على أحوال إخوانه المسلمين بالإضافة إلى أمور دينه وأخلاقياته إلى غير ذلك من جوانب حياته.

وفي المسجد يتم تطبيق ما تعلمه المسلم ، لأنه المكان اللائق الذي يجب أن يكون موضوع إجلال الجميع ، وعلى النتائج الحاصلة من هذا التطبيق ينعكس في نفسية المسلم وعلى سلوكه ما يهدف إليه المسجد خارج حدوده ، وهذا ما جعل من المسجد مكاناً هاماً له أثره الأكبر في بناء المجتمع الإسلامي.

لذا فإن المسجد لم يكن مكاناً لأداء الصلاة فقط ، ولكن كان يمثل الموجه في بناء المجتمع من كل جانب بما توحيه الرسالة المحمدية ، ففتح أبوابه للصلاة ، ولتوجيه المجتمع توجيهاً إسلامياً سواء من خلال المنبر أو حلقات العلم والدرس أو الأحداث التي تجري داخله ، إذا كانت الفرصة مهيأة للاجتماع والتعارف ، وتقوية الروابط الأخوية بين المسلمين ، فالصلاة وحدها والتي يظن البعض أنها علاقة بين العبد وربه ، هي في الحقيقة شحنة روحية هائلة ودرس أخلاقي واجتماعي ونفسي يدفع الإنسان إلى الطريق الأفضل في حياته وعلاقاته مع الآخرين بسلوك يتسامى ويتعالى لأنه يستمد توجيهه من التعليم الإسلامي.

وعلى هذا فإن المسجد قام بأدوار تعليمية متعددة في المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ والصحابة ﷺ بشكل واضح ومؤثر أكثر من أي عصر مرَّ بعد ذلك ، وسنعرض أسباب نجاح المسجد في أداء هذا الدور.

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية ، وانصرف بعض فقراء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي

الشريف حيث بنى الرسول ﷺ الصفة " وهي مكان مظلل في شمالي المسجد يأوي إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم". (حسن ، ١٩٦٤م: ص ٤٢١).

ولقد كان الرسول ﷺ يجلس في المسجد النبوي بالمدينة لتعليم المسلمين أمور دينهم وتبصيرهم عاقبة أمرهم حتى كان مجلسه تنافساً بين الصحابة ﷺ، كلهم يبغي السبق إلى حضور هذا المجلس العلمي والظفر بالإنصات إلى الدروس النبوية، وكان ﷺ إذا صلى الصبح انصرف إلى موضوع الأسطوانة المسماة اليوم أسطوانة التوبة إشارة إلى توبة أبي لبابة حيث يتحلق حوله أصحابه حلقاً بعضها دون بعض وكان يحدثهم إلى طلوع الشمس.

في المسجد النبوي الأسطوانة التي كان يجلس إليها الرسول ﷺ هذا إلى جانب غيره من أصحاب الرسول ، الذين جلسوا للتعلم في المسجد، ومن جاء بعدهم حتى إنشاء المدارس.

وكان من الطبيعي بالنسبة لتطور مفهوم العلم في الإسلام أن تنشأ البذرة الأولى دينية محضة ، فالناس بحاجة إلى تفهم الدين الجديد ومعرفة قواعده وأصوله ، وفهم أهدافه ومراميه ، ومن ثم فالمكان المناسب لذلك هو المسجد" (علي، ١٩٧٨: ص١٣).

فكان المسجد أول مدرسة جماعية منظمة عرفها العرب لتعليم الكبار والصغار ولتربية الرجال والنساء. (النحلاوي، ١٣٩٩ هـ: ص ١٣٠٢).

ومن هنا نرى أن المسجد لم يكن للصلاة فقط بل كان إلى جانب أداء الصلاة مكاناً للتعليم و مدارسة القرآن الكريم وتفهم معانيه على يدي رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ الذين تعهدوا هذا العمل النبيل من بعده وحرصوا على استمرار رسالة المسجد العلمية ابتغاء وجه الله واتباعاً لسنة الرسول المعلم ﷺ.

ومن الثابت أن أهل العلم في القرون الأولى لم يتقاضوا رواتب من الحكومات فيما عدا ما نسمع عنه من الجوائز والصلات بين الحين والحين ، وهذه ليست رواتب ، وقد اعتمد العلماء على أنفسهم وعلى

الجماعة في شئون معاشهم ولا شك في أن الجماعة تكفلت بمعاش المعلمين".(حسين مؤنس، ١٩٧٨م : ص٣٦).

وأشهر مَن امتاز بالعلم وتخصص للحياة العلمية وكثر بها أصحابه وتلاميذه : زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، وأخرج هؤلاء سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام ﷺ ، ومن بعدهما ابن شهاب الزهري القرشي وغيره كثيرون"(علي، ١٩٧٨م: ص١١٢).

ولقد كان من الطبيعي أن يكون المسجد هو مقر تعليم قراءة القرآن والحديث الشريف والتفسير وأوامر الدين ومن ينوب المسلمين نظراً لمكانة المسجد السامية التي أوجدها الإسلام ، لذا فإنه لا يكاد يوجد مسجد يخلو من حلقات العلم والتعليم.

وفي صحيفة همام بن منبة : أن عدد المساجد التي بنيت في حياة رسول الله ﷺ تسعة مساجد ، وأن أكثرها اتخذ مدارس للتعليم. (محمود ، د.ت : ص٤٥).

ولم يكن إلا ذاك أنّ طلاب هذه الحلقات العلمية هم خليط من أفراد المجتمع الإسلامي لا طبقية بينهم ولا تفاضل ، ولا يرد أحد عن الاستماع إلى ما يدور أو يدرس ، ولا يمنع أحد من المناقشة وإبداء الرأي و الاستفسار عما خفي أو جهل.

وأي جامعة شعبية كالمسجد تسع الجميع في رحابها ، في الليل والنهار في الصيف والشتاء ، ولا ترد طالباً شيخاً كان أو صبياً ، ولا تشترط رسوماً ولا تأميناً ، ولا تضع قيوداً ولا عراقيل".(القرضاوي، ١٣٩٣هـ: ص٢٢٦)

ولم تكن مدرسة المسجد قاصرة على تعليم الفقه وتفسير القرآن الكريم ورواية أحاديث الرسول ﷺ وشرحها وتدارس بعض العلوم الإسلامية ، بل درست فيه العلوم والمعارف الأخرى كعلم الكلام وغيره.

ومع مرور الأيام كانت تعقد في المسجد حلقات لدراسة الكيمياء والفيزياء والهندسة والفلك والطب وغيرها من العلوم ما تنهض به الجامعات الآن. (قطب ،١٣٩٩هـ : ص٤٩-٥٠).

وغني عن البيان ذلك الدّور الكبير الذي قام به المسجد منذ عهد رسول الله ﷺ في سبيل خدمة العلم والمتعلمين من أبناء الأمة الإسلامية مما يجعل الإنسان المسلم يفخر به خاصة في الوقت الذي لم تكن فيه مدارس نظامية ولم يكن للدولة دخل في العلوم والمعارف التي تدرس جزى الله أهل العلم من علماء وفقهاء وأئمة خير الجزاء لما قاموا به من عمل جليل دونما يسألون عن ذلك من الناس أجراً أو من الدولة مرتباً.

٢,٢,٤ تنمية من الناحية الإيمانية

إن الوظيفة الأولى للمساجد هي أنها أماكن عبادة، فيها يؤدي المسلمون صلواتهم وجمعهم أو جماعاتهم ، ويقرءون القرآن ويذكرون الله.

وصدق الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِـٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَـٰئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾. [سورةالتوبة : الآية ١٨]

وعمارة المساجد تعني تشييدها وإقامتها وبنيانها ، وبالتالي عمارتها العبادة والاجتماع فيها للجماعة ، وبقراءة القرآن والذكر ، والاعتكاف وهذا هو المعنى الأهم في العمارة.

إن مهمة المساجد هي كما بيَّن الله ﷻ بقوله: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِـٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾. [سورة النور:الآية ٣٦]

ومن الآية نرى أن الله تعالى أَذِنَ أنْ ترفع بيوته بتعظيمها ورفع شأنها بالتقديس والتطهير وإقامة الشعائر الدينية فيها بعد رفع قواعدها وبنيانها.

وذكر الله فيها عام يشمل الصلاة نفسها والأذان وقراءة القرآن والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

ولذا حثّ الدين الإسلامي على ارتياد المساجد وحضور الجماعة فجعل ممن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله – من كان قلبه معلق بالمساجد أي ، بالتردد عليها وإقامة الصلاة فيها وعمارتها ،وذلك من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا

ظل إلا ظله .. ورجل قلبه معلق بالمساجد ..) (البخاري ،د.ت : ح ٦٨٠٦)

وروى مسلم (١٣٧٥هـ:ح ١٥٥٦) قول رسول الله ﷺ : ((من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح)) .

كل هذا لما فيه من اتصال العبد المؤمن بخالقه جل وعلا ولما فيه من القوة الروحية التي يفتقر إليها الإنسان ، واستمرار الصلاة في المسجد إمداد للجماعة الإسلامية بالقوى التي لابد منها لإصلاح المجتمع.

إلى جانب هذا ما تشتمل عليه الصلاة من أسرار في تكرارها وحكم بالغة حيث كررها خمس مرات يومياً لتكون حمايةً روحيةً للمسلم يتطهر بها من غفلات قلبه وأدران خطاياه . (القرضاوي، ١٣٩٣هـ : ص٢١٤).

وليس أثر الصلوات مقصوراً على جانب واحد فقط بل هناك عدة جوانب منها النفسي ، والجسمي ، والعقلي.

فمناجاة العبد به وتذلُلِــه إليه واعترافه بخطاياه وطلب العفو والمغفرة وترك الدنيا جانباً عند الدخول إلى المسجد أمور تدخل إلى النفس طمأنينة وراحة تختل فيها وتريحها من عناء التفكير في الخطيئة والذنب، ومفتاح الصلاة الطهور : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَـٱطَّهَّرُواْ ﴾ .[سورة المائدة : الآية ٦][1]

وهكذا فإن اشتراط التطهر للصلاة في الثوب والبدن والمكان أمر لا تتم الصلاة إلا به ، وفي هذا ما فيه من النظافة التي تجلب الصحة للإنسان.

ولا يأمر القرآن بمجرد الصلاة ، ولكنه يأمر بإقامتها وتعبير الإقامة له مدلول كبير، فيه حضور القلب وإعمال الفكر وصفاء الروح وخشوع الجوارح وطهارة النفس والبدن ، وهو الجو الذي يتيح للقرآن أن يصل إلى غايته ، فيتسامى بالنفس فوق دوافع الجسد ، ويحررها من أسرار

---

١ – القرضاوي ، ١٣٩٣ هـ: ص ٢١٧

شهواتها ويطهرها من الإثم والعدوان ، ويسد فيها منافذ الشيطان ويكيف سلكوها ويطبعه بطابع القرآن.(قطب ، ١٣٩٩ هـ : ص ١٩٠-١٩١).

إن إبراز ملامح التفاف المسلمين حول المقاصد الإسلامية ووحدة العقيدة والكلمة هو هذا التوارد على الصلوات المكتوبة جماعة في المسجد حيث تترسخ العقيدة الإسلامية في القلوب وتتعمق روح التعاون وتقوى عرى التكافل في حياة المسلمين ، وتنبثق الأخلاق الكريمة وتنتشر، بل وتتزايد في ظل الإخاء والتسامح والتساوي الذي يظهر أنه لا عنصرية ولا طبقية في الإسلام بل الجميع سواسية عند الله لا تفريق بينهم إلا بالتقوى. ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورةالحجرات : الآية ١٣].

٣,٢,٤ تنمية من الناحية الإجتماعية

ينفرد المجتمع الإسلامي بنظامه الخاص والعلة الرئيسية هي أنه مجتمع من صنع شريعة خاصة ، جاءت من لدن إله، فهذه الشريعة التي وجدت كاملة منذ نشأتها غير مدرجة تدريجاً تاريخياً ، هذه الشريعة هي التي أوجدت المجتمع وإقامته على أسسه التي أرادها الله لعباده لا التي أرادها بعض هؤلاء العباد لبعض ، وفي ظل هذه الشريعة تم نمو الجماعة الإسلامية ، ووجدت ارتباطات العمل والإنتاج والحكم ، وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية ومبادئ السلوك وقوانين التعامل ،ووسائل مقومات المجتمع الخاصة التي تحدد نوعه وترسم له طريق النمو والتطور . (قطب ١٣٩٨هـ: ص ٦٣).

وحري بالمسجد أن يقوم بدوره في بناء هذا المجتمع لأنه مركز التوجيه والإشعاع ومقر التخطيط لبناء المجتمع ومنبر الهداية والإرشاد لجميع من دخله من المسلمين دون تفريق بينهم.

إن من أول ما دعا إليه الإسلام عدم التفرقة بين المسلمين فقيرهم وغنيهم ، عربيتهم وعجميتهم ، ولم يفضل أحداً على أحد إلا بقدر تقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.[سورة الحجرات:الآية ١٣]

وما من مكان يتجلى فيه هذا القانون الاجتماعي بصورة جلية مثل المسجد إذ يقف الجميع في صف واحد في الصلاة وقد ذابت وانصهرت جميع الفوارق التي تميز بعضهم عن بعض.

إن وحدة المجتمع الإسلامي وتكاتفه وقوته مستمدة من أمور منها عدم التفريق بين الأجناس والطبقات والأعمار، لذا أصبح هذا المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ليس هذا في الصلاة فحسب بل حتى في المعاملات الشرعية والشخصية، والاجتماعية في الحياة.

إن المسجد هو المكان الطبيعي الذي يجمع المسلمين لغرض واحد وبنية خالصة خلف إمام واحد لا يتخلفون عليه، هذا الاجتماع الذي يوحي بالتآلف والوحدة ، هو السبيل إلى السيطرة على طبائع النفوس ونزعاتها فبداخل المسجد يتربى المسلم على تطهر نفسه وتصحيح عقيدته في القرب من ربه ، سراً وعلانية ، وفي داخل المسجد يتربى المسلم على الاتصال بإخوانه المسلمين والسؤال عنهم وتقوية الروابط الاجتماعية بينه وبينهم مما يجعله يهتم بجميع شؤونهم ، وفي اجتماع المسلمين في المسجد يشعر الجميع بالقوة والانتماء للجماعة مما يجعل الفرد منهم يشعر بالطمأنينة ويحس بالراحة النفسية والكرامة والأمان.

ويتجسد خارج المسجد هذا الشعور الاجتماعي في تعامل المسلمين وتفاعلهم في شكل أمة واحدة داخل الفرد الواحد بحكم ما اكتسبوه من القيم والفضائل في المسجد.

إن اعتياد المسجد والتردد عليه ينعكس على سلوك الفرد في مجتمعه وبذلك يحمل الفرد المسلم في دخيلة نفسه روح الجماعة التي يقف معها بين يدي الله مما يجعله يسعى إلى الحفاظ على كيان المجتمع الذي هو جزء منه. وما الأمة إلا تلك المجتمعات المكونة من الأفراد.

والأمة الإسلامية هي الجديرة بأن تسمى أمة لما يربط بين أفرادها بعضهم البعض ومجتمعاتها بعضها البعض من الروابط والقوى التي منشأها الدين الإسلامي.

والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة وهي جنسيتها وإلا فلا أمة، لأنه ليست هناك آصرة تجمعها ، والأرض ، والجنس، واللغة والنسب ، والمصالح المادية القريبة لا تكفي واحدة منها ، ولا تكفي كلها لتكوين أمة إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة . (قطب،١٣٩٨ هـ : ص٨٥).

وليس أدل على هذا القول من قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِـٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِـٱللَّهِ ﴾ [سورةآل عمران: الآية١١٠].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَـٱعْبُدُونِ ﴾. [سورةالأنبياء : الآية٩٢].

ولم يكن المسجد مقصوراً على الذين تجب عليهم الصلاة شرعاً من الرجال بل لقد حرص الإسلام على رعاية الأطفال ، فلقد كانوا يأتون المسجد على عهد ﷺ وكان يرعى شئونهم ويتلطف بهم.(وانلي، ١٣٩١هـ : ص١٢٤).

كما خصَّصَ الرسول للنساء دروساً خاصة ، وخاصة في العيدين حيث يكون جزء من الخطبة موجهاً لوعظ النساء وإرشادهن وذلك لاستحباب خروجهن مع الأطفال في صلاة العيد.

ولقد جعل النبي المسجد بمثابة مكتب للخدمة الاجتماعية وجميع التبرعات ومعاونة المحتاجين ، إلى جانب أداء الصلاة فيه .

حدث أن وفد عليه قوم عراة مجتابي النمار أو القباء متقلدي السيوف فتعمر وجهه أي تغير لما رأى ما بهم من الفاقة ، فأمر بلال فأذن وأقام ثم صلَّى ثم خطب في الناس حاثاً لهم على رعاية الرحم وتقدير الخير، فانهالت التبرعات من الدنانير والثياب والبر والتمر حتى تكون كومان عظيمان من الطعام والثياب ، فتهلل وجه النبي ﷺ و أعطى القوم حتى سروا .(علي، ١٩٧٨م: ص١٠١).

ولئن كانت المؤسسات الاجتماعية اليوم تبذل قصارى جهدها للاهتمام بالفئات التي تحتاج إلى الرعاية والعناية الاجتماعية من المعوقين والفقراء والمعوزين والمرضى والغرباء واليتامى ممثلة في دور الرعاية

الاجتماعية فإننا نرى المسجد النبوي قبيل خمسة عشر قرناً من الزمان كان يقوم بهذا الدور على أكمل وجه ، كما كان مسجد الرسول ﷺ يقوم مقام الجمعيات الخيرية في جمع الزكاة والصدقات من الموسرين والمنفقين وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم من مصارف الزكاة.

ولقد وجدت في المسجد وفي مؤخرته على وجه التحديد الصفة يأوى إليها الغرباء والمعدمون ويجدون فيها الطعام والشراب والكساء والمبيت كما كانت الصفة هذه مكاناً لإقامة الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم .

ويبدو لنا من الحادثة السابقة مدى تأثير الخطبة التي ألقاها الرسول ﷺ في المسلمين والتي يهيب فيها بالمسلمين التبرع ومساعدة المحتاجين ، ولم يتأخر أحد في تقديم ما تجود به نفسه استجابة لمطلب الرسول ﷺ .

ولم تكن هذه الخطب إلا واحدة من خطب مثيلة لها في التأثير والاستجابة في مختلف شئون الحياة الإجتماعية والدينية والأخلاقية ومن هذا نجد مبدأ التكافل الاجتماعي يتخذ طريقاً له في المجتمع الإسلامي من خلال المنبر بشكل لا يتحقق فيها لو كان في مكان غير المسجد.

ولهذا بقيت المجتمعات المسلمة قوية متماسكة في ظل الظروف حتى بعد أن اندثرت الدولة وانهارت النظم الإدارية التي كانت تنظم للناس أمور معاشهم لأن كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي يحمل في أعماق روحه روح الجماعة التي تفرض عليه مد يد العون لأخيه المسلم دون أن يسأله من هو أو من أين أو ما إلى ذلك ، بل يسار إلى تفريج كربته لأنه يعلم أنه يدين بعقيدة التوحيد مثله سواء بسواء. ومن هنا جاءت عظمة هذا الدور الذي قام به المسجد.

إن النظام الاجتماعي الإسلامي قد انبثق من العقيدة الإسلامية وتكيف وجوده بالشريعة الإسلامية ، يجب أن يظل دائماً خاضعاً في نموه وتجديده للأصل الذي انبثق منه وللشريعة التي كيفت وجوده ، يجب أن تكون الشريعة الإسلامية هي المسيطرة على كل تطور في نظام المجتمع الإسلامي".(قطب ١٣٩٨هـ: ص ١٣٨).

وما دام المجتمع يؤمن بعقيدة التوحيد ولا يرضى غيرها بل جعلها نبراس حياته العامة والخاصة واتَّسم بها سلوك الفرد والجماعة فإن عقيدة التوحيد هذه بكل إشعاعاتها ، تسيطر سيطرة تامة على كل جوانب النظام الاجتماعي الإسلامي ، وتحدد مقوماته وخصائصه وآدابه ومعاملاته وحقوقه وواجباته والعلاقات والارتباطات في هذا النظام بكل صوره وأشكاله ، من هذا كله يتضح لنا الدور الاجتماعي الذي كان يقوم به المسجد باعتباره جزءاً من دوره التربوي في المجتمع الإسلامي.

كما يتضح أن دور الاجتماعي سار جنباً إلى جنب وباتزان بديع مع الأدوار التنمية الحضارية الأخرى التي كان يقوم بها المسجد في المجتمع الإسلامي.

٣,٤ أثر المساجد في تعليم الصبيان وتكوينهم

المسجد أحبُّ البقاع إلى الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : ((أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها)) رواه مسلم (١٣٧٥هـ: ح١٥٦٠) فهو قلعة الإيمان، وحصن الفضيلة ، ومكان اجتماع المسلمين يومياً ، ومنه تخرج العلماء والفقهاء ، ومنه أيضاً خرجت جيوش المسلمين ، ففتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وفى رحابه كان التقاضي والقضاء ومحاسبة الخلفاء فهو ملتقى الأمة وناديها ومكان شوراها .

وإن أول شيء اهتمَّ به الرسول ﷺ ، حين قدم المدينة ، هو بناء المسجد ، لأن المسجد هوالذي يضم شتات المسلمين ، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورن لتحقيق أهدافهم ، ودرء المفاسد عنهم ، والتعاون لمجابهة المشكلات ، وصدِّ العدوان عن عقيدتهم ، وعن أنفسهم ، وعن أموالهم .

ومسجد قباء هو أول مسجد في الإسلام ، أسَّسَ على التقوى من أوَّل يوم مما جعل المسجد على مر العصور رمزاً لحضارة الإسلام ، ومكان التربية والعبادة للمسلمين، وقد ذكر الله ﷻ ، المهام التعليمية التعبدية للمسجد ، فقوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِـٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلأَبْصَـٰرُ ﴾ [سورة النور :الآية ٣٦ / ٣٧].

فالمسجد في الإسلام من أهمِّ الأُسس ، التي تقوم عليها تربية الفرد وللمسجد أثر كبير على النشء وخاصة إذا تعودوا منذ صغرهم على ارتياد

المساجد بصحبة آبائهم ، فالمسجد محضن تعليمي ذو أثر عظيم يحافظ على الفطرة وينمي الموهبة ويربط النشء بربه من أول ظهور الإدراك وعلاقات التمييز ، ويطبع فيه المثل والقيم والصلاح بتأثير من الصالحين والخيرين ورواد المساجد من خلال المشاهدة والقدوة.

كما يقوم المسجد بتدريب الصبيان على النظام ويعلمه كيف يتعامل مع الآخرين من خلال المشاركة الاجتماعية والاختلاط بفئات المجتمع ، فينشأ على الأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية والشجاعة ، لأنه يختلط بالكبار ولا يهابهم ويتعلم الاطمئنان النفسي ويتعلم على النظام من خلال الصفوف المتراصة للصلاة ، فيكون في نفسه الترتيب والنظام ويشهد طاعة المأموم لإمامه ، ويرى احترام الصغير للكبير، فتكبر هذه المفاهيم وتشب معه ، وكانت صلة الصبيان الصغار بالمسجد في عهد رسول الله ﷺ الصحابة من بعده، صلة قوية وثيقة نماها رسول الله ﷺ وأصحابه من خلال أفعالهم وتوجيهاتهم.

وعندما يأخذ المسجد مكانة الطبيعي الذي بنى من أجله وأراده الله له يصبح من أعظم المؤثرات التعليمية في تعليم الصبيان والناشئين وتكوينهم ، حيث يرون الراشدين مجتمعين على الله فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم والاعتزاز بالجماعة الإسلامية ، وفيه يسمعون الخطب والدروس العلمية فيبدأون بوعي العقيدة الإسلامية ، وفهم هدفهم من الحياة وما أعدهم الله له في الدنيا والآخرة وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري بتعلم القراءة ودستور المجتمع الإسلامي والنمو الروحي والارتباط بخالقهم ، وفيه يتعلمون الحديث والفقه وكل ما يحتاجونه من نظم الحياة الاجتماعية ، كما أراد الله أن ينظمها للإنسان.

فالمسجد يعلّم الناشئين أن كل أمور الحياة تابعة للإرتباط بالله وإخلاص العبودية لله وينغرس هذا المعنى في نفوسهم عفواً من غير قصد ولا تكلف ، وفي الصلاة تتجسد كثير من مزايا الأخلاق التي تسوغ الشخصية المسلمة السوية ، ومن ذلك قيمة العزة والتي تجسد أسمى معاني الأخلاق وكذلك صفة الرحمة ، وهي الصفة التي اختارها الله لعباده دون سائر صفاته ، فيبتعد النشء عن الرياء والسمعة والكذب وتناقض الفعل والقول ، وقد بقي تعلُّم القرآن الكريم في الكتاتيب والمساجد إلى عهد قريب هو الوسيلة لتعلُّم القراءة والكتابة فيكثير من البلاد الإسلامية ، فكان الأطفال قبل إنتشار المدارس الحديثة يتقنون قراءة القرآن فيتعلمون القراءة من خلال تعرفهم إلى صور الكلمات المكتوبة مقترنة بألفاظها المنطوقة ، وكان

الأطفال بعد هذه القراءة الأولى ، يكتبون القسم الذي قرؤوه على ألواح خشبية يحاكون رسمه في المصحف وكلما كتبوا جزءاً يناسب مقدرتهم عادوا فأتقنوا تلاوته ثم ينتقلون إلى غيره وهكذا حتى يتموا جميع القرآن ثم يُنتقى منهم المتفوقون ليحفظوا القرآن عن ظهر قلب.

إنَّ تردد الناشيء على المساجد منذ نعومة أظفاره يجعله ينمو نمواً لا مشاكل فيه ولا تعقيد أمامه ولا اضطراب في نفسه ويثبت قلبه على الإيمان لأن مرحلة المراهقة من أخطر المراحل في حياته ، وعند بلوغه يكون قد حُصن فؤاده وثبت يقينه فلا قلق ولا اختلال ولا أوهام لأن في المسجد يجد المناخ الطيب والجو الديني والمجتمع الطاهر، فتتأصل في نفسه أمور العبادة وآداب التعامل وشدة المراقبة لله فيكون عضواً سليماً في مجتمعه ويصدق فيه الحديث الشريف: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة، منهم شاب نشأ في عبادة الله)). (الترمذي،١٣٩٨هـ: ح٢٥٦٨)

إن خير القلوب وأدعاها للخير ما لم يسبق الشر إليه ، وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين لكي يرسخ فيها، وقد حرص الإسلام على رعاية الأطفال رعاية منقطعة النظير، إيماناً بأن الأطفال رجال المستقبل وعدة الغد، فلا يجوز تركهم مشردين في الأزقة محرومين من نعمة المسجد الذي هو بيت الله وعش المؤمن ومدرسته العملية، والطفل إذا شب على شيء شاب عليه، ولقد كان الأطفال يأتون المسجد في عهد رسول الله ﷺ يرعى شئونهم ويتلطف بهم، أما اليوم فترى مقابلة بعض رواد المساجد للأطفال قاسية للغاية دون نصح أو إرشاد ظناً منهم أن هذا يخدم المسجد ليكون نظيفاً وقد أدت هذه الظاهرة إلى هجرهم المساجد وذهابهم إلى أماكن اللهو.

ولاجتذابهم من جديد إلى المساجد لابد للكبار من النصح اللطيف والموعظة الحسنة وبسط الجناح وإشعارهم بالعطف والحنان ذلك أن النبي ‘لم يمنع الأطفال من المساجد حتى ((أنه ﷺ نزل من فوق المنبر في أثناء الخطبة لما رأى الحسن والحسين ، وقبّلهما ثم عاد إلى خطبته)) (ابو داؤد: ١٣٧١هـ:ح١١١١).

وحديث الذي جاء فيه : ((أن رسول الله ﷺ يصلى ويجيء الحسن بن علي وهو صغير فكلما سجد النبي ﷺ وثب على ظهره ويرفع النبي ﷺ رأسه رفعاً رفيقاً حتى يضعه على الأرض))(البيهقي ، ١٣٤٤هـ : ح٣٥٥٩).

ومن هنا فالواجب أن نستعين بكل وسيلة من شأنها أن تشوق الطفل إلى المسجد وتحببه إليه ، ونحذر من كل أسلوب من أساليب التنفير

من المسجد ولا عبرة للذين يرون إبعاد الأطفال وأبناء المصلين عن المساجد وخاصة إذا وجد من يهتم بهم وينظم وجودهم ويعلمهم ويربيهم ويرشدهم ، وذلك لأن مفسدة إنحراف الأطفال بإبعادهم عن المساجد أخطر من مصلحة الحفاظ على أثاث المسجد أو الهدوء فيه. (انظر : محجوب ، د.ت : ص ١٠٤)

ويمكننا أن نحدد المهام للمسجد ،من خلال القرآن والسُّنَّة ، فيما يلي :

١,٣,٤ المهام الوظيفية للمسجد

١ـ المسجد مكان الصلاة والذكر والعبادة :

قال تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [سورة التوبة :الآية ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ [سورة النو:الآية٣٦].وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسمُ ٱللَّهِ كَثِيراً ﴾ [سورةالحج :الآية ٢٢]

والمسجد هو مكان العبادة الجماعية ، وصلاة الجماعة التي يحسن بالمسلم أن يحرص عليها ، ففي الحديث الشريف ، يقول الرسول ﷺ : ((ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط)) رواه مسلم (١٣٧٥هـ :ح٦١٠).

والمسجد مكان الاعتكاف ، قال تعالى :﴿ وَلاَ تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِ ﴾ [سورةالبقرة :الآية ١٨٧]

٢ـ المسجد مكان العلم والتعلم :

وأول ذلك دراسة القرآن الكريم ، قال رسول الله ﷺ : ((وما اجتمعَ قَومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا و نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)) رواه مسلم (مرجع سابق:ح٧٠٢٨)

٣ ـ المسجد مكان القضاء والحكم والشورى:

لقد كان المسجد هو مكان الحاكم ، والمدرسة التي تعلم فيه الرعيل الأول من الصحابة إيمانياً و روحياً وخلقياً ، اجتماعياً .

وتفاعلت أرواحهم ونفوسهم بتعاليم الرسول ﷺ وعطائه وقدوته، تعلموا فيه الدين، وعرفوا فيه ، الحلال و الحرام ، كما تعلموا فيه علوم القرآن ، والسنة والشرع ، واللغة وعلوم الحياة كلها.

ومن المسجد كان رسول الله ﷺ ، وخلفاؤه ، يديرون شؤون الأمة والدولة والدعوة ، ويرسلون السفراء ، ويجهزون الجيوش ويخططون ويمارسون نظام الشورى ، إذا جدأمرواستدعى قراراً سريعاً، ورأياً قاطعاً نودي الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس ويتشاورون، وفيه ينتخب العمّال ويرسلون ويحاسبون ، وتوزّع فيه أموال الزكاة والصدقات ويعقد النكاح . (محجوب،١٩٨٧م: ص ٢٦٤)

وبالتردد على المساجد يُشهد للرجل بالإيمان، فقد روى أبو سعيد الخد ري عن النبي قوله ﷺ : ((إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)) رواه الترمذي (١٣٩٨هـ :ح٨٥١)، وهذا تأكيد لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِـٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة :الآية١٨] [١]

٢,٣,٤ المهام التعليمية للمسجد

ظل المسجد في عهد الرسول ﷺ والصحابة المكان الرسمي لشؤون التعليم والعبادة ، وما يتعلق بهما من الوعظ والتوجيه والذكر والتعليم ، حتى اتسعت الدولة الإسلامية ، وأصبحت الحاجة ملحة إلى تخصيص أماكن للتعليم ، يقوم بها نفر من المسلمين الذين تفرغوا لهذه الحرفة ، ومع ذلك ظل المسجد المكان الأول الذي تتحقق فيه الأهداف العملية للتربية ، وأصبح المسجد مؤسسة من المؤسسات التعليمية التي لإغناء لأحد من التعلّم بها ، ويمكننا أن نحدد المهام التربوية للمسجد من خلال ما قام به المسجد في تاريخ المسلمين فيما بعد :

---

[١] - انظر : محجوب ، د.ت : ص ١٠٤

١ـ تعليم العبادة الصحيحة

يتعلم المسلم في المسجد قواعد التوحيد وتطبيقاته والعبادة وطرق أداتها وإحسانها ، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الجن :الآية ١٨]، فالمسلم يأتي للمسجد ليخلص لله بعبادته ، ويطهر روحه بعد أن جاء طاهر البدن والملبس ، وليصل ربه في بيته .

ولأن المساجد خصصت للعبادة وقراءة القرآن والذكر، فهي لا تصلح لمنازعات الدنيا ، ومدافعات الأهواء ، والبيع والشراء ، والخلافات ، فالمساجد أماكن عبادة ، يتعلم فيها المسلم كيف يعبد ربه عن علم ومعرفة ودراسة ، ومكان لتطهير النفوس وتزكيتها وتربيتها على إخلاص النية لله في العبادات .

ولأن الصلاة تمثل الظاهرة المستمرة في العبادات ، أمر الرسول ﷺ بتدريب الصبيان عليها ، عن طريق المحاكاة والتقليد أولاً ، ثم التوحيد والدفع ثانياً، فأمرنا أن نأمرهم بها تقليداً في سبع سنوات ، ونضربهم عليها في عشر حتى يُهيَّئوا إليها ويصبح جزءاً من واجباتهم اليومية ، فلا تثقل على نفوسهم إن نأمرهم بها في سن التكليف ، ويكون ذلك بأن يعوِّدَ المسلم أبناءه ارتياد المساجد ، وأن يكون قدوة لهم فيها ، وأن يصطحبهم معه وأن يحببها إليهم بالوسائل كلها . (محجوب ، د.ت : ص ١٠٤)

٢ـ نشر التعليم العام :

ظلت المساجد في تاريخ الإسلام المؤسسة التعليمية الأولى ومكان العبادة والوعظ وتصريف شؤون الحياة ، وكان الرسول ﷺ يجلس و يتحلق أصحابه حوله ، ويستمعون إليه ويتعلمون منه ، وعلى الرغم من انفصال المؤسسات التعليمية وتخصيص أماكن للتعليم ، إلا أن ظاهرة اتخاذ المسجد منارة تعليمية مازالت ظاهرة مرتبطة بالمساجد في كل بقاع الأرض ، مما يدل على عدم استغناء المسلمين عن المسجد كواجهة تعليمية لنشر العلم والمعرفة، ولم يكن التعليم مقتصراً على الرسول ﷺ، فقد كان الصحابةﷺ يتحلقون ويعلمون بعضهم ويتذاكرون ، فقد روى عبد الله بن عمر، أنّ الرسول ﷺ دخل المسجد فإذا وهو بمجلسين ، أحدهما يذكرون الله تعالى ، والآخر يتفقهون ، فقال رسول الله ﷺ: ((كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب إليَّ من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون

الجاهل وإنما بُعِثتُ مُعلّماً ، وجلس إلى أهل الفقه)) (الدارمي،١٤١٢هـ ١٩٩١م: ح٣٥٧)[١]

وقد تعلم قادة المسلمين وأمراؤهم وساستهم على مرّ العصور في المساجد التي انتشرت في كل بقعة يقطنها المسلمون ، وظل تأثير المسجد فعالاً وموجهاً للمسلمين ومربياً لهم ، ولا يستطيع أحد أن يتجاهل الدور التوجيهي والتعليمي للحرمين الشريفين ، والجامع الأزهر في مصر، والجامع الأموي في دمشق ، وجامع الزيتونة في تونس ، والقرويين في المغرب .

وقد ركز المستعمرون على إطفاء مشاعل العلم في هذه المؤسسات ، لإدراكهم خطورة توجيه المسجد في حياة المسلم ، ولعل هذا هو الذي نبّه المسلمين إلى أهمية المسجد ودوره التربوي والتوجيهي ، والاهتمام بإعادة رسالته. (محجوب ، د.ت : ص ١٠٤)

٣,٣,٤ المهام الاجتماعية للمسجد

يتعلم الناشئ في المسجد ، في ظل مجتمع إسلامي ناهضٍ راقٍ، ينظم شؤونه على أساس الشورى ، ويتفقد مرضاه فيعودهم ، وفقراءه المعوزين فيعطيهم مما أعطاه الله، أواصر المحبة بين جميع القلوب ، فيعدوا مجتمعاً قوياً متماسكاً يساهم تربية الجيل ونهضته وإنعاشه.(النحلاوي،١٤٠٣هـ :ص١٣٣)

وقد بقي تعلم القرآن في الكتاتيب والمساجد، إلى عهد قريب وسيلة لتعلم القراءة والكتابة ، فكان الأطفال ، قبل انتشار المدارس الحديثة ، يتقنون التعرف إلى صور الكلمات المكتوبة مقترنة بألفاظها المنطوقة .

وكان الأطفال بعد هذه القراءة الأولى ، يكتبون القسم الذي قرؤوه ، على ألوح خشبية ، يحاكون رسمه في المصحف ، وكلما كتبوا جزءاً يناسب مقدرتهم ، عادوا فأتقنوا تلاوته ، ثم ينتقلون إلى غيره ، وهكذا حتى يتموا جميع القرآن ، ثم ينتقى المتفوقون ليحفظوا القرآن عن ظهر قلب .

وحتى تتحقق مصلحة تربية الأطفال وتكوينهم من خلال المساجد ، لابد من اتخاذ بعض الإجراءات من القائمين على المساجد ومنها:

١ـ أن يشجعوا الآباء لاصطحاب أبنائهم إلى المساجد وتعليمهم النظافة والنظام وأن يراقبوهم ويوجهوهم لما فيه صالحهم.

---

١ - والماوردي، ١٩٧٣م : ص ٤٤

٢- أن يجد الأطفال والصغار من يرشدهم وينظم جلوسهم ويقيم لهم المناشط التي تتفق وأعمارهم.

٣- أن يتحبب العاملون في المساجد للأطفال وأبناء المصلين بالبسمة ورحابة الصدر وأن يجذبوهم للمساجد ولا ينفروهم منها.

إن الهدف من تعليم الصبيان التعليم الإسلامي ليس تزويدهم بالمعلومات والآداب الإسلامية فحسب بل إطلاع الصبيان على المعنى الأعمق للحياة والعالم من حولهم ، والأخذ بأيديهم إلى الطريق الذي يؤدي إلى تنمية متكاملة لكافة جوانب الشخصية ومساعدتهم على التصدي لمشكلات الحياة الشخصية والاجتماعية . (انظر : محجوب ، د.ت : ص ١٠٤)

٤,٤ الاهتمام بالحفاظ على التراث الإسلامي للتعليم في المساجد

سبق أن المسجد كان جامعة كبرى للتعليم ، وتخريج الأكفاء لإقامة تعليمية إسلامية ، وإمدادها بالعاملين في كل مجال من مجالات الحياة ، وقد كانت المساجد في العالم الإسلامي تخرج الخلفاء والأمراء، والقواد والعلماء ، ورجال القضاء والفتيا والمحدثين والمفسرين واللغويين وغيرهم

ولقد أقفرت اليوم أكثر مساجد المسلمين عن أداء هذا الأمر العظيم ، وأن إعادة المسجد إلى مكانته لا يطمع فيها طامع ، ما لم تمتلئ المساجد بكبار العلماء ، وتعقد حولهم الحلقات من طلبة العلم النابهين الأذكياء المخلصين، وتكون التعليم في المساجد أقوى من التعليم في الجامعات والمعاهد ، ويكون لعلمائها وطلابها منزلة عالية في المجتمع ، كما كان لهم ذلك في الماضي .

وهذا يقتضي أن نتعاون مع العلماء المخلصين، الذين عندهم علم غزير وحكمة وصبر، وتمكنهم من القيام بتعليم العلوم الإسلامية بصفة واسعة، مع الدراسة الجادة للمشكلات المعاصرة ، في كل شؤون الحياة وتقديم الحلول لها، وكتابة البحوث والمؤلفات فيها .

وإن ذلك إذا حصل سيكون فيه مصالح للأمةكثيرة جداً، نذكر منها ماتيسر :

المصلحة الأولى : إعادة مكانة المسجد التي كاد يفقدها في غالب بلدان المسلمين ، وفقدها فعلاًفي بلدان أخرى .

المصلحة الثانية : نشر التعليم بين جميع طبقات الناس، وهو ما تسعى إليه الدول في العصر الحاضر، وتسميه بمحو الأمية .

المصلحة الثالثة : أن انتشار العلم بين الناس، يعيد من ابتعد عن الدين بسبب جهله، إلى دينه بالعلم النافع .

المصلحة الرابعة : أن يفقه الشباب الدين الحق على أيدي علماء متمكنين، ولايأخذوا أفكارهم من غير العلماء المؤهلين أو من الكتب التي قد تؤدي ببعضهم إلى الغلو والإفراط ، وبآخرين إلى الجفاء والتفريط .

المصلحة الخامسة : إزالة ما يعاني منه المسلمون من الفرقة والشتات، بسبب سوء الفهم وعدم الفقه في الدين ، وضيق الأفق عند كثيرين منهم .

المصلحة السادسة : أن يعلم كل مسلم ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات ، فتتبين حقوق بعض أفراد الأسرة على بعض وحقوق الجيران بعضهم على بعض ، وأعظمها حقوق ولاة الأمور على رعيتهم ، وحقوق رعيتهم عليهم ، وذلك مطلب ضروري ، وبخاصة في هذا العصر الذي تفاقم فيه العداء بين الكثيرين ، في أغلب البلدان التي ابتعدت عن منهج الله ﷻ .

٥,٤ اثر التعليم في تنمية الحضارة الإسلامية

نلاحظ من خلال ما تقدم من كلام على مفهوم التنمية أنّ هذه العملية الحضارية لها مجالات متعددة؛ منها التنمية الاقتصادية التي تُعنى بتطوير الإنتاج وتحسينه وما تفرع عنها من التنمية الصناعية والتنمية الزراعية والتنمية التقنية وغيرها، وهناك أيضاً التنمية الاجتماعية التي تعنى بتغيير وتطوير المجتمع ككل؛ على جميع المستويات وفي كلّ الميادين، ثم أصبح يعبّر عنها في الدراسات الاجتماعية بالتنمية البشرية، إلى غير ذلك من مجالات التنمية الأخرى.

وانطلاقاً من شمولية التنمية التعليمية في المنظور الإسلامي ، فإنّ من الأمور المهمّة في هذا الصدد ترتيب هذه المجالات من حيث الأولوية، بحيث يتم تقديم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، مع التسليم طبعاً بأهميتها ونفعها جميعاً، وفي تقدير أنّ أهم مجال للتنمية هو المجال التعليمي الذي يجب أنْ يعطى الأولوية في المشروع التنموي الإسلامي بحيث يكون نقطة الانطلاق للتطوير والتغيير الشامل ، ويمكن بيان ذلك من خلال الوقوف

على الهدف الأساس للتنمية التعليمية الإسلاميّة من حيث الأولوية والاهتمام والمكانة التي أعطاها الإسلام للعلم والتعليم.

١,٥,٣ أهداف التنمية في الإسلام

إنّ المشاريع التنموية مهما اختلفت أهدافها أو تعددت أغراضها، فإنها تتفق في الهدف العام والمتمثل في تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته ، وتقدم وتطور المجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، وعلى الرغم من هذا الاتفاق فقد اختلفت المناهج المستخدمة لتحقيق ذلك ، وهذا الاختلاف سببه الرئيس موقف التنمويين من العملية التنموية ، هل هي وسيلة أم غاية ؟ فالذي يرى أنّ التنمية وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته ، ففي هذه الحال تكون التنمية خادمة للإنسان محققة لمصالحه ، وأما من يرى أنها غاية في ذاتها فيجعل الإنسان خادماً لها ولو كان ذلك على حساب سعادته، وفي هذا الموقف تكون التنمية من أجل التنمية وليست من أجل الإنسان.

ولعلّ العالم الغربي المعاصر خير مثال يوضح لنا الموقف الثاني الذي يتخذ التنمية غاية لا وسيلة ، فالعالم الغربي اتخذ من التنمية الاقتصادية غاية في حدّ ذاتها ، ولذلك كان مقياسها الإنتاج ليس سعادة الإنسان نفسه ، فإذا حدثت تنمية وتطوير في الإنتاج فقد حقق تنمية اقتصادية ولو رافق ذلك تخلف الإنسان نفسه وتدهور العلاقات الاجتماعية وشقاء كثير من أبناء هذا المجتمع ، ولذا فإنّ هذا الموقف الغائي من التنمية جعلت الإنسان الغربي يكدح ليلاً نهاراً لخدمة التنمية من أجل زيادة الإنتاج وتطويره وتحسينه ، وإنْ كان يظن ظناً قوياً أن التنمية خادمة له ومحققة لمصالحه ، ولكنّ الواقع يكذب هذا الظنّ ، إذ على الرغم من حصول تنمية اقتصادية ، فإنّ المجتمعات الغربية تعاني من المشكلات الاجتماعية ضروباً ومن الظواهر الإجرامية ألواناً وعديداً من النـزعات غير الأخلاقية وغيرها [١] ، مما يدل دلالة واضحة على أنّ التنمية الاقتصادية لم تحقق سعادة للإنسان الغربي لأنها كانت غاية في حدِّ ذاتها وقد حققها فعلاً فلا مزيد عليها.

---

١ ـ مثال ذلك ظاهرة الانتحار الفردي أو الجماعي وانتشارها في العالم الغربي التي لا تكاد تجد لها نظيراً في مجتمعاتنا رغم تخلفها وتدهور وضعيتها الاقتصادية مما يدل على يأس الإنسان الغربي من تحقيق سعادته ورفاهيته من خلال التنمية المزعومة، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ويمكن مراجعة الكتب التي اهتمت بالمشكلات الاجتماعية في المجتمعات الغربية.

وأما الموقف الإسلامي من التنمية على غرار ما تقدم من كلام على المنظور الإسلامي لها فتعد وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته في الدنيا والآخرة ، وهذا الموقف مبني على التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان حيث "إنّ الإنسان غاية جميع ما في الطبيعة ، وكلّ ما في الطبيعة مسخر له"(ابن خلدون ،١٩٨١م:ص٣٥٣) وكما في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لأيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورةالجاثية:الآية١٢-١٣]، وقولـه تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولاً فَـٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة الملك:الآية ١٥].

وأنزل القرآن من أجل الإنسان أيضاً كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورةالنحل : الآية ٤٤]، وخلق الإنسان وجعل حياته مقصداً شرعياً لابد من المحافظة عليها، فلا يجوز الاعتداء عليها بدون حق ، ولذلك كلّه حرّم القتل تحريماً فيه غلظة وشدة كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورةالنساء: الآية٩٣]، وسبب ذلك أنّ القتل يحول بين الإنسان وبين تحقيق مهمته في الاستخلاف ، وفي ذلك قضاء على عمارة الكون وتنميته واستثمار ما فيه.

وبناء على ذلك ، فإنّ هدف التنمية الإسلاميّة هو الإنسان ، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية تحقيقاً ينسجم مع قصد الشارع من استخلافه في الأرض إذن فالإنسان هو محور التنمية الإسلاميّة وهدفها الوحيد، ولذلك عندما قدمت تعريفاً للتنمية من منظور إسلامي أكدت على محورية الإنسان في هذه العملية ، بحيث جعلتها تطويراً شاملاً لقدرات الإنسان ومهاراته المادية والمعنوية ، فكون الإنسان محوراً للتنمية الإسلاميّة وغايتها يعطي أولوية للتعليم بحيث يعتنى بالتنمية التعليمية ويركز عليها قبل غيرها من مجالات التنمية المتنوعة. (انظر: نصار، د.ت : ص ٢-٣)

٢,٥,٤ أولوية التنمية التعليمية في الإسلام

تبيّن من خلال الكلام في مفهوم التنمية وهدفها من المنظور الإسلامي أنّ الإنسان محورها وهدفها بوصفه الكائن الوحيد في هذا الكون

القادر على إحداث تغيير وتطوير والقيام بعملية تنموية لما في الكون، وذلك بما اختصه الله ﷻ به عن بقية الكائنات.

وبناء على ذلك فإنّ التنمية تحدث من أجل الإنسان، ولا يتم تحقيقها أيضاً إلا بجهود الإنسان نفسه، فهو الذي يخطط لها ويسهر على تنظيمها ويشرف على تنفيذها ، وذلك كلّه يتطلب تهيئة الإنسان وتأهيله للقيام بالعملية التنموية ، ولذافليس هناك من وسيلة تهيئه وتؤهله للقيام بهذه العملية أفضل وأولى من التعليم.

ومن ثَم، فلا غرابة أنْ يهتم العالم الإسلامي أول ما يهتم بالتنمية التعليمية ويرعاها حق رعايتها ليحقق التنمية المنشودة.

وعليه، فإنّ نقطة الانطلاق في التنمية الإسلاميّة والنهوض الحضاري إنما تبدأ من التعليم ، فـ"مهما حاولنا أو توهمنا أنّ النهوض والتغيير والإصلاح يمكن أنْ يتم خارج مواضع التعليم، فإنّ التاريخ والواقع والتجربة الذاتية والعالمية تؤكد أنّ التربية والتعليم السبيل الأوحد إلى درجة يمكن أنْ نقول معها بدون أدنى تحفظ : إنّ التربية هي تنمية بكلّ أبعادها، وأي مفهوم للتنمية بعيداً عن هذا فهو مفهوم جزئي وعاجز عن تحقيق الهدف"(سانو،د.ت: ص٢١) المطلوب من تلك العملية ، وبعبارة أخرى فإنّ التعليم يعدّ السبيل الوحيد الذي يمثل الانطلاقة السليمة للنهوض بالعالم الإسلامي من التخلف والتدهور والانحطاط الحضاري وتحقيق تنمية شاملة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجالات الاجتماعية.

وزيادة على ذلك ، فإنّ مما يزيد التعليم أولوية من حيث التقديم والاعتناء به قبل غيره أنه يعدّ تنمية الأم لبقية المجالات التنموية ، إذ إنّ تعليم الإنسان المسلم وتربيته ، يجعله مهيئاً للقيام بالعملية التنموية في أيّ مجال، بمعنى أنّ الفرد المتعلم أينما توجهه لا يأتي إلا بخير؛ فإذا توجه إلى المجال الاقتصادي ساهم في تنميته وتطويره، وكذلك إذا توجه إلى المجالات الاجتماعية أو المجالات العلمية والتقنية أو غيرها ومعنى ذلك أنّ التنمية التعليمية تؤدي حتماً إلى تنمية المجالات الأخرى وتساهم مساهمة فعّالة في تطويرها، والعكس ليس بصحيح، لأنّ الواقع التاريخي قديماً وحديثاً يدل على هذا الأمر وفي العيان غنية عن البيان.

وهذا الكلام ليس نظرياً ، ولعل بعضهم لا يغنيهم العيان فيطالب بالدليل، فنقول: إنّ التجارب تصدق ذلك وتثبته وتنفي عكسه وتكذبه ، فمثلاً "مع بداية الستينات اتجهت نماذج النمو الاقتصادي إلى الاستثمار في البشر من خلال إعطاء أولوية للتعليم والتدريب ، وظهر في تلك الفترة مفهوم

تنمية الموارد البشرية[1] ، مع أصوله الاقتصادية الواضحة. "(القصيفي ، د.ت : ص٨٣).

وهناك أمر آخر ذو أهمية ، إذا جعلنا التنمية التعليمية نقطة الانطلاق الضرورية للتغيير والتطوير والنهضة الحضارية ، فإنّها تحدث استقلالية في العملية التنموية.

ومعنى ذلك أنّ إعطاء الأولوية للتعليم في العملية التنموية والاهتمام بذلك يكوِّن أجيالاً من المسلمين قادرين على تخليص التنمية من التبعية، ويصنعوا تنمية لها استقلالها الذاتي ونابعة من الإسلام ومنسجمة مع تعاليمه وموفرة متطلبات وحاجيات العالم الإسلامي ، ولا شكّ أنّ مثل هذا الأمر لا يتحقق إلا بجعل التعليم نقطة البدء في العملية التنموية حتى يتهيأ للعالم الإسـلامي رجاله ونساؤه الذين يصنعون التنمية صنعاً ولا يستوردونها استيراداً ، ولذا فإنّ التنمية لا تكون تنمية حقيقية إلا إذا كانت بعيدة عن التبعية ، وهذه الصفة المذمومة للتنمية لا تزول إلا بالاعتماد على الذات، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التعليم فضلاً عن ذلك ، فإنّ واقع العالم الإسلامي وما اتصف به من تنمية تبعية سببها عدم وجود أناس ذوي كفاءات ومهارات وقدرات للقيام بتنمية مستقلة.

والسبب في ذلك راجع إلى أنّ التعليم في العالم الإسلامي لم يعط الأولوية في العملية التنموية ، ولم يلق حظه من العناية والاهتمام كما ينبغي . (انظر: نصار، د.ت : ص ٤-٥)

٣,٥,٤ اهتمام الإسلام بالتنمية التعليمية

ليس غريباً أنْ يهتم الإسلام بالتنمية التعليمية ، بل الغرابة كلّ الغرابة أن لا يهتم بها ، فإذا كان الإنسان محور التنمية وهدفها الأساس، وأنّ التعليم يمثل نقطة الانطلاق السليمة لذلك ، فمن المعلوم -كما تقدم- أنّ التعليم كان محوراً أساساً للإسلام ، لذلك أولاه الرسول مكاناً عظيماً ورفعه الصحابة مكاناً علياً ، وكذلك أمر التعليم في الأجيال الإسلاميّة التي كان

---

١ - إنّ استخدام مثل هذا التعبير لا يليق بالإنسان إذ يجعله مساوياً للموارد الأخرى التيـية ومه و بتنميتها، والأفضل أنْ يستخدم عوضاً عن ذلك تعبير تنميةالق ـدرات أوالطاق اتالب شريةلأنه ا هي العنصر الكامن في الإنسان، والذي يراد تنميتهحت ىيك ونل هم ساهمةف يالعملي ةالتنموي ة، وليس تنميةالم واردالب شريةالمقابـ للتنمي ةالث روةالحيواني ةوغيره ا. (انظ ر:الق صيفي، د.ت: ص٨٣)

يخلف بعضها بعضاً في نشر العلم وتعليمه ، فحققوا بذلك نهضة حضارية وتنمية مستقلة اعتمدوا فيها على قدراتهم وكفاءاتهم الخاصة.

ويظهر اهتمام الإسلام بالتنمية التعليمية في النقاط الآتية:

أ - مكانة العلم في الإسلام: إنّ الحضارة الإسلاميّة التي بلغت ذروة المجد في العصر العباسي ، لم تنشأ من فراغ ولم تشيّد من عبث ، بل كان وراء ذلك كلّه عدّة أسباب ، أهمها على الإطلاق نشاط الحركة العلمية والتعليمية وانتشارها في العالم الإسلامي آنذاك نتيجة لما أولاه الإسلام من عناية بالعلم لا تجد لها نظيراً، حتى بلغ مبلغاً عظيماً ولذا ، فليس بغريب أنّ يقترن تحضرالأمة الإسلاميّة ورقيّها وازدهارها بالعلم ، وما تركته من تراث خير شاهد على مدى مبلغها من العلم وما نتج عنه من تحضر ورقي. وبناء على ذلك ، فمن الطبيعي أنّ يقترن تخلفها وتراجعها الحضاري بإهمال العلم والتعليم وعدم إعطائه الأولوية من أجل الخروج من هذا المأزق الحضاري.

ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني (١٩٩٧م: ص ٨٦) الفائدة من تقديم شيء على آخر في الخطاب العربي بقوله : "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام ، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى".

فإذا كان له حكمة في تقديم شيء على آخر في الخطاب وهي العناية والاهتمام ، فإنّ لله الحكمة البالغة حين قدّم العلم في نزول الوحي على سائر الأمور كلّها ، إذ إنّ أول الآيات نزولاً قوله تعالى :﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورةالعلق: الآية١-٥].

فهذه الآيات نزلت على الرسول وهو متحنّث في غار حراء ، تأمره بالقراءة وتبيّن له أنّ الله هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، فكان أول عهده بالوحي مع هذه الآيات التي حددت نوعية القراءة باسم الله ، وتكرر ذلك في الموضعين اللذين أمرا فيهما بالقراءة وهما: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ ﴾.

إذن ، فلم يكن تقديم العلم للعناية والاهتمام به فحسب ، بل أيضاً لما له من مكانة عظيمة لا تدانيها أي مكانة في الإصلاح والتغيير، إذ إنّ رسالة الرسول الإصلاحية كانت انطلاقتها أمراً بالقراءة وحثّاً على العلم والتعلم ، ولذا فمن راى إصلاحاً وتغييراً فليتخذ من العلم والتعليم بداية الانطلاقة نحو الإصلاح.

فضلاً عن ذلك ، فإنّ الله خلق الخلق وهو عليم وخبير بما يصلحهم ، وأرسل رسوله رحمة للعالمين ، وجعل مدخل ذلك العلم بوصفه الانطلاقة السليمة والبداية الضرورية للتغيير والإصلاح ، وعلى قدر نشر العلم يكون الإصلاح ، ولذلك ليس بمستغرب أنْ نعدّ العلم مقياساً للتنمية الإسلاميّة ، ومؤشراً على الإصلاح ، وعلامة على النهوض الحضاري ، وهذا ما جعل للعلم مكاناً علياً في الرسالة الخاتمة.

ونظراً لما للعلم من مكانة عظيمة في إصلاح الشعوب وترقيتها ، فإنّ الإسلام حثّ المسلمين على الزيادة من العلم وتنميته ، كلاً على قدر استطاعته ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، إذ أمر بأنْ يدعو الله أنْ يزيده من العلم في قوله تعالى:﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [سورة طه:الآية١١٤].

وهذه التنمية العلمية التي دعا لها الإسلام لا تتوقف عند حدٍّ لا تجاوزه، ولا يستطيع أحد أنْ يدعي أنّ تنميته العلمية قد بلغت حدًّا لا مزيد عليه، ومن ادعى ذلك فهو جاهل بطبيعة العلم كما قال الله تعالى :﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يوسف : الآية٧٦]، ومعنى ذلك أنّ طلب العلم وتنميته تستغرق حياة المتعلم كلّها ، لاعتقاده أنه مهما بلغ من العلم فهناك من هو أعلم منه ، وليس هناك تعبير يـحُثّ المسلمين على التنمية العلمية أبلغ من الآية السّابقة ، والتي قبلها ، أعني بذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [سورة طه : الآية١١٤].

يضاف إلى ذلك ، أنّ العلم مقياس يعتمد لاختيار الأصلح فالأصلح في مختلف المجالات ، وذلك بناء على اصطفاء الله طالوت ملكاً على قومه نظراً لما له من بسطة في العلم والجسم ، رغم أنّ مقياس القوم كان مادياً إذ كانوا يرجون أنْ يتملكهم رجل ذو سعة من المال ، ولكن قدمت الزيادة في العلم على الزيادة في المال ، كما بيّن الله ذلك في قوله تعالى :﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورةالبقرة:الآية٢٤٧]، فذكر قصة طالوت مع قومه عبرة لنا ، وهو مغزى القصص القرآني كلّه كما في قولـه تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورةيوسف :الآية١١١].

والعبرة من هذه القصة أنّ الزيادة في العلم تعد خير مقياس لاختيار الناس وتحميلهم المسؤوليات ، وفي ذلك دلالة على مكانة العلم وأهميته في التعاليم الإسلاميّة .

ثم إنّ أحاديث الرسول الواردة في شأن العلم إنما هي تأكيد لما جاء في القرآن الكريم وتعضيد لعظمة مكانة العلم في الإسلام، ومن ذلك قول الرسول : ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)) (ابن ماجة ، ١٩٥٣م : ٨/١ ح ٢٤٤)، فنص الحديث يدّل على أنّ طلب العلم فرض على كلّ مسلم، وهذا الفرض منه ما يطالب به كلّ مسلم على حدة فيكون فرض عين ، مثل العلم بكيفية الصلاة وكيفية أدائها على الوجه الشرعي.

ومن العلم ما يكون طلبه من المسلمين عامة غير معيّن الأفراد، فيكن في هذه الحال فرض كفاية ، ولاسيما إذا كان في أمور الدين فيطالب به من كانت له قدرة على ذلك وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورةالتوبة:الآية١٢٢].

ثم إنّ الحديث السابق وما فيه من أحكام يشمل الرجال والنساء والصبيان معاً كما هو معلوم من تركيبة الخطاب العربي المبين ، ولاسيما أنّ شرعنا الحنيف يؤكد على أنّ ((النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ)) (الترمذي ، ١٣٩٨هـ :ح ١١٣) كما ورد في الحديث الشريف ، بل إنّ الرسول قد خصّ النساء بالتعليم نزولاً عند رغبتهنّ في ذلك ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَتْ: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ : اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ)) (ابن حجر ،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:٢٨/٥٦-٥٧ح٧٣١٠).

وعلى الجملة ، فللعلم مكانة عظيمة ، حيث بلغ الاهتمام به مبلغاً عظيماً حتى وقع تقديمه في نزول الوحي على سائر الأمور، وتزداد هذه المكانة رفعة بجعله فريضة على كلّ مسلم.

ب - مكانة التعليم في الإسلام : فإذا كان للعلم مكانة عليّة في تعاليم الإسلام ، فلابد أنْ يكون للتعليم أيضاً المكانة نفسها ، إذ لا يمكن الفصل بين العلم والتعليم ، فالعلم لا يُكتسب إلا بالتعلم والتعليم ، والتعليم ينعدم إذا لم يكن هناك علم ، إذ العلم ما يكتسبه الفرد عن طريق التعلم، والتعليم نقل ما اكتسبه من العلم للآخرين.

ولعلّ أفضل ما يوضح لنا مكانة التعليم أنه غاية الإسلام ، فلا استمرار للإسلام وتعاليمه إلا بالتعليم والتعلم جيلاً عن جيل، فضلاً عن أنّ بيان مواضعه عند المسلمين خير شاهد على مكانة التعليم في الإسلام.

بالإضافة إلى ذلك ، فإنّ الله ختم الرسل بمحمد وجعله رحمة للعالمين ومنة منّ بها سبحانه على المؤمنين ، وتتمثل هذه المنة في التزكية

وتعليم الكتاب والحكمة ، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سورةآل عمران:الآية١٦٤]، فضلاً عن تعليمهم ما لا يعلمون كما ورد في قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورةالبقرة:الآية١٥١] ، وفي موضع ثالث ذكر الله منة التعليم على العرب وذلك بإرسال الرسول إليهم مقابل ما كانوا عليه من أمية، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورةالجمعة:الآية٢]، ففي هذه الآية الكريمة ذم للأمية ومدح للعلم والتعليم، حيث ذكر حالهم قبل بعثة الرسول وهي الأمية ، ثم كانت بعثة الرسول لإزالة هذا الوصف المذموم بتعليمهم الكتاب والحكمة، ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ أول الآيات نزولاً تأمر بالتعلم ، وذلك عن طريق الأمر بتعلم القراءة والكتابة ، فهي إذن تتضمن معنى ذم الأمية ومدح التعلم، وأنّ هذه الصفة المذمومة لا تزول إلا بالتعلم.

ولقد أكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة القرآنية ببيان الغاية من بعثته بقولـه : ((إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا)) (مسلم، ١٣٧٥هـ : ٨١/١٠)) ، فحصر الرسول بعثته في التعليم ووصفها بالتيسير، وذلك خلقه في أموره كلّها.

ولذا، فإنّ حياة الرسول استنفدها كلّها في تعليم المؤمنين أمور دينهم، فلا تمر عليه ساعة من ليل أو نهار إلا ويغتنمها في تعليم أصحابه أي أمر من أمور دينهم وما فيه صلاح لهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كانت عملية التعليم في سيرة الرسول متصفة بالديمومة والاستمرارية ، وهذا الأمر وحده كاف للدلالة على أنّ التعليم غاية الرسالة الخاتمة ، ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ استمرار عملية التعليم في الأمة الإسلاميّة إنما هي استمرارية للإسلام نفسه ، لذلك كان الرسول يبعث أصحابه لمن لم يحضره من المسلمين لتعليمهم أمور دينهم ، وكان يوصي رؤساء القبائل والوفود بأنْ يعلّموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم ، كما ورد في قول الرسول : ((ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ ، وَعَلِّمُوهُمْ ، وَصَلُّوا ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ)) (البخاري،د.ت:ح ٦٢٨).

فخلاصة القول إنّ للتعليم مكانة عظيمة سببها أنه يمثل أسس الرسالة الخاتمة والغاية من بعثة الرسول ، وأنّ في ذلك منّـة عظيمة من الله سبحانه على المؤمنين.

ونظراً لما تبوأه التعليم من مكانة وسموّ رتبة في الرسالة الخاتمة جعل المسلمين يهتمون بأمر التعليم والمحافظة عليه ، وذلك بجعله عملية مستمرة من جيل إلى آخر عبر التاريخ الإسلامي هذا ، ولا شكّ أنّ التاريخ الإسلامي قد شهد تقدماً علمياً ورقياً وازدهاراً نتيجة لتعاليم هذا الدين التي تحثّ على العلم والتعليم وتحرّض عليهما ، وترقى بهما إلى مرتبة الفرض التي لا تعلوها أيّ مرتبة أخرى أو تدانيها ولذا ، فأبعد في الاستحالة أنْ تكون تعاليم الدين الإسلامي هي التي ساهمت في تخلف التعليم لدى المسلمين مما أدى إلى تخلفهم ، بل التاريخ يشهد بخلاف ذلك والحاصل أنّ الحضارة الإسلاميّة كانت نتيجة نشاط الحركة التعليمية وازدهارها في العالم الإسلامي.

وإذا أخذنا بمفهوم المخالفة في هذه المسألة ، فنقول : إنّ التراجع الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم إنما سببه الرئيس تراجع الحركة التعليمية وتخلّفها ، أو قل ، إن شئت إنّ التعليم في العالم الإسلامي يمرّ بأزمة معضلة.

وبناء على ذلك ، فإنّ حاضر العالم الإسلامي يعيش أزمة تعليمية بلغت مبلغاً قصياً ، بحيث أصبحت داء متمكناً مستعصياً، من الصعوبة بمكان علاجها والخروج منها ، نظراً لحدّتها واستفحالها في المجتمعات الإسلامية ، ناهيك عن أنّ الأزمة التعليمية تفوق في حدّتها أيّ لون آخر من ألوان الأزمات ، بوصفها الأزمة الأم في العالم الإسلامي، وإنْ كان عدم الاهتمام بها يُشعر كأنها أقلّ خطراً وأخفّ ضرراً من الأزمات الأخرى، ولا سيما الأزمة الاقتصادية.

والسبب في ذلك راجع إلى ما أومأنا إليه من قبل من أنّ التنمية في العالم الإسلامي تكاد تكون محصورة في الجانب الاقتصادي دون غيره من الجوانب الأخرى ، وقد بيّنت أنّ هذا المنظور للتنمية هو سبب فشلها. ومن ثَم، فليس غريباً أنْ تعدّ الأزمة التعليمية جرثومة التراجع الحضاري للأمة الإسلاميّة ، وأن تنمية التعليم سبيل الخلاص من هذا التراجع الحضاري. (انظر: نصار، د.ت : ص ٨-١٠)

٦,٤ دور المساجد والكتاتيب في تنمية التعليم

عندما نفكر في التعليم أو نتحدث عنه ، فمن الطبيعي أن يتبادر لذهننا أولاً قبل كل شيء المساجد والكتاتيب وما يحدث فيها من مناشط، وحين نقول فلاناً تعلّم، فنعني بذلك أنه أكمل برنامجاً دراسياً في المجال

التعليمية، وعندما ندعو شخصاً متعلّما ، فإننا نربط بينه وبين المواضع التعليمية من الناحية المهنية ، وعليه فإنه من المناسب عند دراسة فلسفة التعليمية أن نتناول التعليم في المساجد والكتاتيب على أنها المصدر المباشر المحدد الواضح للخبرة التعليمية.

ولكن عندما نبدأ التفكير في التعليم نلاحظ وعلى الفور أنه بالإضافة إلى المساجد والكتاتيب هناك وسائل كثيرة تدار من خلالها عملية التعليمية ، من بين هذه الوسائل تحتل المساجد والكتاتيب بالتأكيد أهمية أساسية ، ولكن المساجد والكتاتيب ليست الأمكنة الوحيدة التي ينمو فيها الأفراد نمواً موجهاً قصدياً ، فقبل المساجد والكتاتيب هناك المنزل ، وهو من نواح كثيرة له أثر في الشخصية أقوى وأدوم وأعمق ، وتقوم التعاليم الدينية أيضاً في العادة بممارسة تأثيرها القوي.

كما أن الاشتراك مع الأصدقاء ومع الزملاء من المواطنين في مناشط تحتل اهتماماً مشتركاً ، والاشتراك في العمل والحياة المهنية لها علاقة بتوجيه النمو الإنساني ، فالمؤسسات الاجتماعية كدور الكتب والمتاحف ، وكذلك المساجد والكتاتيب يمكن أن تكون عوامل للنمو العقلي.

وفي النهاية فالفرد نفسه وسيلة تعليمية على جانب عظيم من الأهمية ، وما يصبح عليه الفرد لا يتحدد في كليته على الإطلاق، نتيجة تأثير العوامل الخارجية ، ولكن يتحدد أيضاً على أساس قدرته الداخلية على التوجه الذاتي .

أما بالنسبة للمؤسسات التعليمية الإسلامية ، فقد عرف الإسلام المؤسسة التعليمية منذ اللحظات الأولى لبدء نزول الوحي على قلب محمد ، فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مؤسسة تعليمية، فقد كان المعلم الأول يجمع القلة القليلة التي آمنت به سراً في هذه الدار، ويستخلص نفوسها، ويعلمها آيات القرآن التي يتنزل بها الروح الأمين على قلبه، ويشكلها عقائدياً بما يتفق وتعاليم الإسلام الحنيف .

ولم تكن المؤسسة التعليمية الإسلامية مقتصرة على المدرسة فقط، بل تعدتها إلى الكتاب، والمسجد، والمكتبة، وبيوت الحكمة، ودور العلم، وحوانيت الوراقين، ومجالس العلم والمناظرة، ومنازل العلماء، ومجالس الفتوى، والبيمارستانات، وغيرها.

ولقد كانت هذه المؤسسات التعليمية الإسلامية، نتاج بيئة معينة، نابعة من صميم حاجات المجتمع الإسلامي وتطوراته، مصبوغة بالروح الإسلامية، حيث اهتدت بتعاليم وأغراض الإسلام، إنها ليست بالدخيلة،

وإنما هي نتاج نمو وتطور في الحياة الإسلامية العامة، نشأت في أمكنة معينة وأزمان معينة، وظروف معينة , وضمن أغراض معينة أملتها حاجات المجتمع الإسلامي النامية المتطورة. (انظر : سعد الدين ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م : ص١٧٧)

وسنتناول في تنمية أدوار المؤسسات التعليمية عند المسلمين ،وتطورها في العهود الأولى .

ظهر الكُتَّاب عند المسلمين منذ عهد الرسول ‘، وانتشر مع انتشار الإسلام في مختلف البلدان، وأنشئ من خلال عمل إسلامي بحت، وكان المكان الرئيسي في العالم الإسلامي لتعليم الصغار، وقد تمتع بمكانة كبيرة الأهمية في الحياة الإسلامية، وبخاصة وأنه المكان الذي يتعلم فيه الصبيان القرآن، إضافة إلى ما للعلم من مكانة في نظر الإسلام حيث هو فريضة على كل مسلم، وكذلك تلك القدوة التي نأخذ بها من خلال أقوال وأفعال الرسول حيث حض على ضرورة التعلم، فكلف كل أسير من أسرى الحرب بعد موقعة بدر بتعليم اثني عشر طفلاً من أطفال المسلمين على سبيل الفدية

وبعد ذلك انتشرت الكتاتيب في الأمصار وأصبح بناؤها من أجلِّ الأعمال التي يتنافس عليها المخلصون من رجال التربية والتعليم .(علي،١٩٧٨م:ص١٥٩)

وبعد استقصاء للمصنفات التي اهتمت بدراسة الوسائط التعليمية عند المسلمين قديماً(عسيري، ١٩٨٧م:ص٢١٩) تبين للباحث أن الكتاتيب كانت تنقسم إلى قسمين:

أحدها: خاص بتعليم القراءة والكتابة ، و هذا النوع كان موجوداً من قبل انتشار الإسلام.

أما النوع الآخرمن الكتاتيب فقد اختصَّ بتعليم القرآن الكريم ومباديء الدين الإسلامي وبعض علوم اللغة والأدب .

ومما تجدر الإشارة إلى أن الإدارة المُحْكمة كانت موجودة في الكتاتيب من خلال الدقة في التنظيم وحسن التنسيق حيث كان المؤدبون يتولون ذلك أثناء تعليمهم للصبيان.

فبجانب تلك الكتاتيب التي اتخذت في المساجد أو ألصقت بها هناك كتاتيب أخرى أنشئت في مباني مستقلة تعنى بتعليم الأيتام ، أو أطفال

أبناء المسلمين الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم . (علي ، ١٩٧٨م : ص١٦٢)

فقد أولى المهتمون التأديب والتعليم في العصر العباسي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأوقفوا الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة فيما عند الله من الأجر والثواب ، وحرصاً على نشر العلم ، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب مكاتب الأيتام أو مكاتب السبيل. (الزركشي ،١٣٨٤ هـ : ص٣٢٧)

ولم تكن الكتاتيب في الغالب داراً متعددة الغرف والفصول كما هو الحال اليوم في دور الحضانة ورياض الأطفال ، وإنما كانت غرفة واسعة أو غرفتان متوسطتان على الأكثر متواضعة الفرش والأثاث تتسع لعدد من الأطفال يشرف عليها المعلم أو النقيب. (طلس، د.ت:ص ٧٧-٧٨)

والذي يبدو أنه لم تكن هناك سنٌ محددة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم ، وإنما كان الأمر متروكاً لتقدير آباء الصبيان ، فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك ذهبوا به إلى الكتَّاب وكان " للقوم في التعليم سيرة بديعة وهي أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فإذا حذقه كله أو حذق منه ما قدِّر له ، خرج إلى المقريء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزباً .. ". (الأبراشي،د.ت:ص٧٣)

ومما يدل على أن الكتاتيب كانت وسائط للتأديب ما أشار إليه القابسي بقوله : ((وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ويضربهم إذا كانوا بني عشر ، وكذلك قال الإمام مالك رحمه الله ، في نص الحديث المروي عن النبي ﷺ : ((مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع)) (ابوداؤد ،١٣٧١هـ:٤٩٥) ويستنتج من أمر الأولاد بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين أن سن التعليم يبدأ منذ ذلك الوقت، وكان الصبي في الغالب

يرسل إلى الكتَّاب أو يجلس إلى مؤدِّب يؤدِّبه فيما بين الخامسة والسابعة من عمره . (الأهواني ، د.ت : ص٥٩)

ويبدو أنه لم تكن هناك مدة محدودة للفترة التي يقضيها الطفل في الكتَّاب وإنما يرجع ذلك إلى مدى استيعابه وقابليته للتعلم .

غير أن هناك إشارات إلى تحديد مدة الدراسة في الكتَّاب تتراوح مابين السن الثانية عشرة والرابعة عشرة كحد أقصى ، فالصبي إذا استمر بالمكتب حتى سن البلوغ دون أن يحفظ القرآن فإنه يُصْرف ليحل محله أحد الصبية قال القابسي : " وينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده ، بمناهزته الاحتلام .." (المرصفي ، ١٤١٠هـ : ص٢٢)

وهذا يدل على أن غالبية الصبيان لم يكونوا يمكثون في الكتَّاب حتى سن الاحتلام وسبب ذلك أن التعليم فيه يقتصر على تلاوة القرآن وحفظه ، فإذا بدأ الصبي تعلمه في السادسة مثلاً فإنه يحتاج إلى أربع أو خمس سنوات ليتم حفظ القرآن وهو المعروف بالختمة أو الحذقة عند المغاربة والأندلسيين (الأهواني ، د.ت:ص٦٠)

وهناك الكثير من أبناء المسلمين قد ختموا القرآن في العاشرة من أعمارهم كابن عباس وابن مسعود والإمام الشافعي وغيرهم ، ولا يؤخذ النابغين مقياساً في الحكم على العامة وأوساط الناس ، فإذا قُدر النابغة النبيه الذي يحفظ القرآن في العاشرة من عمره ، فإن المتوسط في النُبْغ والنباهة يستطيع أن يحفظه في الثانية عشرة ، أما المتأخرون فإنهم يحتاجون إلى زمن أطول ، وهذا هو السبب في تأخر بعض الصبيان في الكتاتيب إلى سن الاحتلام .

ولم يكن حفظ القرآن جميعه واجباً على كل الصبيان ، بل جرى العرف أن من أحب استظهار كتاب الله كله بقي مع المعلم أو المؤدب حتى يحفظه ، ومن أحب أن يترك الكتَّاب قبل استكمال جميع القرآن فله ذلك . (انظر : سعد الدين ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م : ص١٧٧)

يقول القابسيّ : " وأما الصبي علم حتى تدانى من الختمة فأراد الخروج من عند المعلم إلى معلم آخر أو إلى صنعة أو إلى ما أحب الانتقال إليه ". (الأهواني ، د.ت:ص٦٠)

ومن هنا يمكن القول أن الصبي يبقى في الكتَّاب حتى السن الثانية عشرة أو مادون ذلك ، إذا اعتبرنا أن سن الالتحاق بالكتَّاب هي السادسة ، وسن الخروج هي الحادية عشر فإن هذه المرحلة من التعليم كانت تشغل خمس سنوات ، وهو ما يقابلها المرحلة الابتدائية في العصر الحاضر .

وأما عن مواعيد الدراسة في الكتاتيب فكانت أيام الأسبوع وحدة متكاملة للتعليم ، حيث تبدأ الدراسة بشروق الشمس من يوم السبت وينتهي عصر يوم الخميس ، وكان يوم الجمعة هي الراحة الأسبوعية لصبيان الكتَّاب (عبد العال ،١٤٠٥هـ:ص١٨٥) يقول الإمام القابسي (د.ت: ٦١/٢) " أما تخلية الصبيان يوميّ الخميس والجمعة ، فهذا يجري على حسب عرف الناس أو المؤدب وإن كان قد عُرف من شأن المعلمين ، فهو كما عرف من شأنهم في يوم الجمعة ".

وهو ما ذهب إليه ابن الحاج بقوله: "وانصراف الصبيان وراحتهم في الأسبوع أمر لا بأس به ،بل ذلك مستحبٌ ، فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها هذا إلى جانب أن المعلم ينبغي له أن يصرف الصبيان لغذائهم ، ويترك لهم مع ذلك وقتاً يستريحون فيه في بيوتهم " (عبد العال،١٤٠٥:ص٧٦)

وقد عُرِفَتِ الراحة أيضاً في عيديِّ الفطر والأضحى ، وفي يوم " الختمة " فقد كان الصبي يحصل على إجازة يوم واحد حين يختم القرآن الكريم ، وعلى هذا جرى العرف في ذلك العصر، يقول القابسيِّ (د.ت : ٦١/٢) "وإنما الإذن في الختم اليوم ونحوه " .

ولعل الأمر في تقرير أوقات الراحة عند المربين المسلمين لئلا يلجأ الصبي إلى التخلص من التعليم بالهرب أو استخدام الحِيَل ؛ نتيجة الإنهاك الجسميّ والعقليّ بسبب التعليم المستمر والتحصيل الدائم ، وقد بين علماء المسلمين أن إرغام الصبيّ على التعلم بصفة مستمرة سبب لموت

قلبه وإبطال ذكائه وتنغيص عيشه مما يجعله يطلب الحيلة للخلاص منه . (القابسي ، د.ت:ص٢٨٠-٢٨١)

ولحفظ النظام في الكتاتيب فإن المربين يرون بعدم السماح للمؤدِّب الغياب عن المكتب البتة مادام الصبيان فيه ، لأنهم لا يميزون ، فلا بد لهم من راع يرعاهم بنظره ، ويسوسهم بعقله ويؤدِّبهم بكلامه .(عبد العال ، ١٤٠٥هـ:ص٧٦)

وعليه فإن الكتاتيب والحلق القرآنية تعد من أقدم الوسائط التأديبية لتأديب الصبيان على وجه العموم وتأديب أبناء العلية من الوجهاء والوزراء على وجه الخصوص (انظر : سعد الدين ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م : ص ١٧٧)

٧,٤ شمول وظائف التعليم في المساجد لمصالح الدنياوالآخرة

فالمساجد بيوت الله ، فيها يعبد وفيها يذكر اسمه ، وزواره فيها عُمَّارُها، وهى خير بقاع الله في الأرض ومنارات الهدى وأعلام الدين، فكما أنها مجالس للتعليم ، ومحراب للعبادة ، فهي منارات لتعليم العلم ومعرفة قواعد الشرع بل هي أول المؤسسات التي انطلق منها شعاع العلم والمعرفة في الإسلام ،وفي فضلها وعظم منزلتها وردت نصوص كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الجن:الآية ١٨]، فالله وهو مالك كل شيء ، نسب المساجد إليه وشرَّفها وعظمها بإضافتها إليه ، فليست هي لأحد سواه ، كما أن العبادة التي كلَّف الله عباده إياها لا يجوز أن تُصرف لسواه .

ومنها ما رواه مسلم في صحيحه (د.ت :ح ٢٦٩٩) عن أبي هريرة أن النبي قال : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)).

ومما يدل على مكانة المساجد عند الله أن عُمَّارها ماديا ومعنويا هم صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين ، وأتباعهم من عباده المؤمنين، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة : الآية١٢٧-١٢٨]

وقال تعالى في عُمّار سائر المساجد : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِـٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة التوبة : الآية ١٨]

ووعد سبحانه وتعالى من بنى له بيتا في الأرض- أي بنى مسجدا لله تعالى- أن يبني له بيتا في الجنة كما في حديث عثمان بن عفان قال : سمعت النبي يقول : ((من بنى مسجدا بنى الله له بيتاً في الجنة)) (الترمذي ، د.ت: ٢٠٦/٢).

وإذا أريد من المسجد أن يقوم بوظائفه فليُمكن من ذلك ولتعاونه المؤسسات الأخرى ، وعندئذ سيصبغ حياة مجتمعه بالصبغة الإسلامية التي صبغ بها مجتمعه الأول في عهد الرسول ، والجيل الأول من الصحابة والتابعين والعصور الزاهية للإسلام .

وتطورت الدروس في المساجد وتنوعت واتسعت في آفاقها العلمية ، ولم تعد مهمة التدريس ووظيفة تدوير العلوم مقتصرة على الصحابة من الرجال والنساء الأولين بصفتهم مدرسين وطلاب فحسب ، بل الأمر تعدى إلى الجيل الجديد الذي تربى في أحضان جيل الوحي ، وهو جيل فرض نفسه بقوة على مراحل البناء النفسي والروحي التي وضعت أسسها بشكل أكثر وضوحا في المدينة المنورة خلال مراحل الاستقرار التي أعقبت فتح مكة المكرمة .

وبعدما وصلت عملية تبادل العلم ونقل نصوص السنة إلى مستوى من الكمال بين مرحلة الرسول والمراحل التي تلت وفاته بالتلازم مع وظيفة تعليم الكبار القراءة والكتابة وتحميلهم تعاليم الوحي التي لامست العلاقة مع كل شرائح المجتمع بمن فيهم الأطفال والصبيان ، ظهر أمر مستجد فرض نفسه بقوة على المسلمين وكان لزاما عليهم الاستجابة له ؛ تمثل في وظيفة استيعاب جيل الأطفال والصبيان المرافقين للصحابة إلى المساجد.

على أنه ينبغي أن تكون هذه المؤسسات متعاضدة مع المسجد في مجال التوجيه والتثقيف ويكون عملها متكاملا منسجما بحيث تكون النتيجة هي المسلم الصالح .

إن دور المسجد في الواقع جزء متكامل مع أدوار المؤسسات الأخرى في المجتمع، فتنطلق منه لتمارس أنشطتها من خلاله مغزولة ومتداخلة في النسيج الذي يكون حياة المجتمع .

وقد استمرت المساجد تؤدي هذا الدور العظيم قرونًا طويلة من الزمن، حتى أصبحت الأمة الإسلامية اليوم في مرحلة الغثائية الهزيلة

الطافية من الداخل ، وتكالب قوى الشر والطغيان والغزو عليها من الخارج ، ضعف دور المسجد وانحسر مدة ونضب نبعه أو كاد في كثير من بلدان الإسلام ، وذلك على حين غفلة من بعض المسلمين ، وسذاجة بعضهم ، وسوء نية بعضهم الآخر .

وفي ظل هذه الأوضاع المتردية وفي خضم تلك المؤامرات الهادفة إلى إقصاء المسجد عن رسالته ووظيفته في المجتمع ، ما فتئت روح الإسلام تدب في كل عرق من عروق العالم الإسلامي طبيعيًا هادئًا ، فتدفعه إلى الإسلام دفعًا متواصلًا ، ونتيجة لهذه اليقظة الواعية والصحوة المباركة بدأت المساجد تستعيد دورها الرائد في المجتمع المسلم توجيهًا وتعليمًا وتربية وخلايا حية تنبض بالحركة والعطاء لتؤدي دورها وتقوم بواجبها موجهة المؤسسات الأخرى كالبيت والمدرسة ، متعاونة معًا في ميدان التوعية والتوجيه .

٨,٤ آداب التعليم وتقاليده

إن آداب التعليم وتقاليده عند المسلمين مديّنة بأصولها منذ العهد النبوي ورغم أنها تَبَلْوَرَتْ على مرِّ الأيام كما تظهر في المؤلفات المتخصصة.

وإذا كانت مهنة التعليم تحظى بهذه المكانة الرفيعة في ميدان الحياة كلها ، فإن المعلم اذي يوجه العملية ويجعلها تسير في اتجاهها الصحيح لا يقل أهمية عن هذه المهنة ، فالمعلم يعتبر الأساس في تحقيق أهداف هذه العملية وتطبيق خططها ، وتنفيذ مناشطها على الوجه الأكمل للوصول بها إلى المستوى اللائق بها.

وفي ضوء هذا الفهم لأهمية وخطورة التعليم وفعالية المعلم وتأثيره فيه ، نستطيع أن نفرد فيما يلي الحديث عن الصفات التي حددته العهد النبوي لمَن يتولى مهنة التعليم ، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي : (انظر: العمري، (د.ت) : ص ١٧٧- ٢٨٥)

١,٨,٤ الصفات الخُلقية

تحظي الأخلاق في الإسلام بمكانة كبيرة وعظيمة ، فقد أشاد القرآن الكريم بالخلق الحسن ودعا إلى تعليمه للمسلمين وتنميته في نفوسهم، وفي ذلك نجد الحق تبارك وتعالى قد اثنى على النبي بحسن خلقه فقال : ﴿

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم:الآية٤] ومع حسن خلق النبي إلا أننا نجد قد أمره بمحاسن الأخلاق وبثها بين الناس فقال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت:الآية ٣٤] وما وصف الرسول بحسن الخلق وامره بها إلا دليل كبير على أهمية هذا الجانب ، ودليل لإعداده لنشر دين الله وتعاليمه بين الناس .

وفي ضوء هذا التوجيه القرآني أخذ العهد النبوي على عاتقه الاهتمام بمسألة الأخلاق وبثها بين الصحابة ، ولعلنا نجد صدق ذلك في قوله : ((إن مَن أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)) (ابن حجر،١٣٢٨ هـ : ١٠٤/٧)

ولما كانت مهنة التعليم هي مهنة التي بعث من أجلها الرسول كما جاء في قوله : ((إنما بعثت معلماً)) (ابن ماجة، ١٩٥٣م:٨٣/١) فعليه كان ينبغي أن يكون صاحب هذه المهنة على نصيب وافر من الأخلاق الفاضلة التي بعث النبي من أجلها ، وما دام الأمر كذلك فإننا سنوضح فيما يلي جوانب الصفات الخُلقية التي تتطلبها شخصية المعلم للنهوض بالعملية التعليمية ، وسيكون ذلك وفقاً لما قرره العهد النبوي وتوضيح ذلك فيما يلي : (انظر : وزّان ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ص ١٠٧-١٢٤)

١) القدوة التي يحتذى بها في كل الأفعال والتصرفات

إن العهد النبوي في تعليمه للصحابة أعطى القدوة كأسلوب من أساليبه التعليمية وزناً كبيراً لادراكه بأن " القدوة التي يقتدى بها الطفل أو الإنسان ثم الصداقات التي يكونها، فهذه قد تنمي المرء ان كانت صالحة خيرة، وقد تهدمه ان كانت شريرة " (النحلاوي، ١٩٧٩م: ص٢٢٨)

ولهذا " كان رسول الله بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن الكريم وتعاليمه وآدابه وتشريعاته، وبما فيه من أسس تعليمية إسلامية وأساليب تعليمية قرآنية " (ابو العينين، ١٩٨٠م:ص١٢٩)

وفي هذا تقول السيدة عائشة عندما سئلت عن خلق رسول الله فقال: ((كان خلقه القرآن)) (مسلم، ١٣٧٥هـ:٢٦/٦) وقد كان الرسول قدوة في العبادة ، وقدوة في الكرم وفي الزهد ، وقدوة في التواضع ولين الجانب وقدوة في الحلم ، وقدوة في كل أمر من أمور الحياة كلها.

وهكذا فإن العهد النبوي عني بترسيخ القدوة وتعميقها، فكان يعمل على تأكيدها ويعلم عليها الكبار والصغار، ولعل من ذلك ما جاء في سنن

أبي داؤد (١٣٧١هـ:٢٩٨/٤) عن عبد الله بن عامر أنه قال : دعتني أمي يوماً ورسول الله قاعد في بيتنا فقالت : ها تعال اعطيك ، فقال لها رسول الله : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : اعطيه تمراً، فقال لها رسول الله : أما انك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة))، ومن معالم حرص العهد النبوي على القدوة الحسنة وتأصيلها لدى الصحابة ما جاء عن عائشة قالت : ((قبّل رسول الله الحسن والحسين بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً ، فقال الأقرع : إنَّ لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً ، فنظر إليه رسول الله ثم قال : مَن لايرحم لا يُرحم)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:٤٢٦/١٠)

وخلاصة القول أن القدوة في نظر العهد النبوي هو من أعظم وسائل التعليم ترسيخاً وتأثيراً ، فالطفل حين يجد من أبويه ومعلميه القدوة الصالحة في كل شئ، فإنه يتشرب مبادئ الخير ويتطبع على أخلاق الإسلام ، وعلى هذا فإن المعلم ينبغي أن يكون قدوة لتلاميذه في أفعاله وتصرفاته لكي يحقق أهداف التعليم الإسلامي.

٢) التواضع ولين الجانب

إنَّ المتتبع للعهد النبوي يجده قد أقر هذه الصفة ووجَّه إليها وألزم المنتمين إلى المهنة التعليمية بالأخذ بها ، وجعلها مدخلاً لأي موقف تعليمي ، ولقد كان رسول الله بقدر ما بحث على الالتزام بفضيلة التواضع ولين الجانب في التعامل والعلاقات ، فإنه من ناحية عملية كان المتواضع الأول مع الصحابة .

ومما يؤكد اهتمام العهد النبوي بصفة التواضع ولين الجانب " اجماع مّن عاصر النبي واجتمع به ، أنه كان يبدأ أصحابه بالسلام وينصرف بكليته إلى محدثه صغيراً كان أو كبيراً، وكان آخر من يسحب يده إذا صافح، وإذا أقبل جلس حيث ينتهي بأصحابه المجلس، وكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته . (علوان،١٩٨١م:٦٤٠/٢)

وهناك الكثير من المواقف التي توضح تواضعه فمن ذلك ما حكاه أنس قال : ((كان رسول الله يعود المريض ، ويشيع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك)) (ابن ماجه،١٩٥٣ م:١٣٩٨/٢) وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: ((قلت لعائشة ما كان رسول الله يصنع في بيته ؟ قالت : يخيط ثوبه، يخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم)) (ابن حجر، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:٤٦١/١٠)

ومن هنا وفي ضوء ما سبق نستطيع القول أن نجاح المعلم في التعليم وبلوغ الأهداف المرجوة يتوقف على مدى التزامه بصفة التواضع ولين الجانب ومدى عطفه على المتعلمين ، فكل هذا يساعد إلى وجود الألفة بينه وبين المتعلمين ويجعلهم يقبلون عليه ،وبالتالي يسهل تعليمهم الحقائق والمفاهيم والمبادئ الدينية في يسر وسهولة ، ومن ثم يستطيع ترجمة هذه الحقاق والمفاهيم إلى سلوك إجرائي عملي في جو من التفاهم والاحترام وبهذا يكون المعلم قد عمله على الوجه المطلوب .

٣) الصبر

إن الناظر إلى العهد النبوي نجده قد أكَّد على هذه الصفة وأعطتها حقها من البيان والتوضيح وحث على الالتزام بها في كل الأمور تمشياً مع توجيهات القرآن إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية١٨٦]ولقد كان الرسول أحلم الناس وأصبرهم " ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله ، وإن كل حليم قد عرفت منه زله وحفظت عنه هفوه وهو لايزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ولا على اسراف الجاهل إلا حلماً " (اليحصبي،١٩٧٩م :١٠٤/١)

ومن المواقف التي يمكن أن يستفاد منها في مهنة التعليم والتي توضح ضرورة الصبر ما جاء في سنن أبي داؤد (١٣٧١ هـ:٤٧/٤) عن أبي هريرة قال : ((كان النبي يجلس معنا في المجلس يحدثنا فإذا قام قمنا قياماً حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه ، فحدثنا يوماً فقمنا حين قام فنظرنا إلى أعرابي قد ادركه فجبذه بردائه فحمر رقبته ، قال ابوهريرة ، وكان رداء خشناً فالتفت فقال له الأعرابي : أحمل لي على بعيري هذين ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك ، فقال النبي : لاواستغفر الله لاواستغفرالله لاواستغفر، لااحمل لك حتى تقبدني من جبذتك التي جبذتني، فكل ذلك يقول له الاعرابي : لااقيدكها ، فذكر الحديث، قال: ثم دعا رجلاً فقال: أحمل له على بعير به هذين على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً، ثم التفت إلينا فقال : انصرفوا على بركة الله))

والعهد النبوي اهتمَّ بكل أنواع الصبر وربّ الصحابة عليه، فقد كان الرسول يقوم بعبادة الله حتى تتورم قدماه مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر ومع هذا يقول : ((أفلا أكون عبداً شكوراً)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:١٤/٣) وكما أخذ هذا العهد على عاتقه تدريب

الصحابة على الصبر على المعاصي وفي هذا يقول : ((حقَّت الجنة بالمكاره وحقَّت النار بالشهوات)) (الترمذي ، ١٣٩٨هـ:٥٩٨/٤)

وكما حرص العهد النبوي أن درَّب الصحابة على الصبر في النوازل [١] وهذا إنما يريد تأكيد قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوفْ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلأَمَوَالِ وَٱلأنفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ" وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[سورة البقرة:الآية ١٥٥-١٥٧] وفي الحديث قوله : ((مَن يرد الله به خيراً يصب منه)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:١٠٣/١٠)

من كل ماسبق يتضح لنا قيمة الصبر وضرورته في كل أمر من الأمور وعليه ينبغي أن يكون المعلم متحلياً بهذه الصفة التي مجدته العهدالنبوي بغية النجاح في العمل التعليمي وبلوغ أهدافه .

٤) التقوى والورع

إن إدراك العهد النبوي لمعاني صفة التقوى والورع وفعاليته في التعليم ،فمن هنا نجده حرص عليه حرصاً عظيماً ، تنفيذاً وتوجيهاً وتمسكاً ، ولعل الذي يؤكد هذا تلك النصوص الكثيرة التي وجهت عليه العهد النبوي ، فمن ذلك عن أبي هريرة قال: ((قيل يا رسول الله مَن أكرم الناس قال : اتقاهم)) (ابن حجر١٣٧٨هـ-١٩٥م:٤١٤/٦) وروى الترمذي ،١٣٩٨ هـ:٣١٩/٤) عن أبي هريرة قال : ((سئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الجنة ، قال : تقوى الله وحسن الخلق))

ومما تجدر الاشارة إليه أن العهد النبوي في حرصه على تثبيت هذه المعاني لدى كل من ينتمي إلى مهنة التعليم ، إنما تستهدي بما جاء في القرآن الكريم عن ضرورة الورع والتقوى إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [سورة آل عمران:الآية ١٠٢) وفي ضوء هذا التوجيه القرآني وما صرح به العهد النبوي يقتضي الأمر مراعاة صفة التقوى والورع فيمن ينتمون إلى مهنة التعليم .

٥) الاخلاص

---

١ - هوالصبرعل ىم اي صيبالم ؤمنف ينف سه أومال ه أومنزلت ه أوأهل هوتل ككله ااع راض متوقعة . الغزالي،١٩٧٨م : ص١٣٦.

إن العهد النبوي يسعى إلى تعليم الصحابة بصورة متكاملة، ويعمل على تطهير قلبه وتكميل شخصيته بتعهده للنبيل من السجايا بالتنمية الصالحة ، ولهذا نجد أن هذا العهد أولت صفة الاخلاص أهمية كبيرة باعتبارها دعامة أساسية من دعائم الخلق الحسن ، وباعتبارها قاعدة التعليم والعمل البنّاء .

ولعل الذي يؤكد هذا الاهتمام تلك النصوص الكثيرة التي حفلت بها كتب السنة والتي يظهر من خلالها توجيه الرسول للناس للتمسك بالاخلاص في كل أمر من الأمور والعمل بمقتضاة ، فمن ذلك قوله : ((مَن فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لاشريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ)) (ابن ماجه ،١٩٥٣م: ٢٧/١) ومن ذلك أيضاً قوله : ((إنَّ الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه)) (النسائي ، ١٣٤٨ هـ:٦٥٩/٢)

وفي ضوء هذا الفهم نستطيع القول ان المعلم بمجرد انتمائه إلى مهنة التعليم لا بد أن يكون ملتزماً بالاخلاص صفةً وسلوكاً ، وذلك لأن طبيعة مهنة التعليم تستوجب الاخلاص والعمل به ، لأن حقائقه وقيمه وأهدافه لايمكن أن توطد مالم يتوافر الاخلاص .

٦) الرحمة

إن الناظر إلى العهد النبوي نجده أعطى هذا الصفة نصيباً وافراً من الاهتمام، فلقد كان الرسول يذكر أصحابه دائماً بالرحمة ويوجههم إليها، وإلى ضرورة الالتزام بها في كل شأن من شؤون الحياة ، ويؤكد هذا قوله :((إنما أنا رحمة مهداة)) (الدارمي ،١٤١٢ هـ ١٩٩١م :٦٦/١) ويروي الإمام مسلم في صحيحه (١٣٧٥هـ:١٥٠/١٦) أنه قيل ((يا رسول الله ادع على المشركين ، قال: إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة)) .

ولم يتوقف الأمر في العهد النبوي عند حدِّ التوجيه إلى الرحمة، بل لقد اتصف الرسول بالرحمة طيلة حياته ، ونفذها تنفيذاً عملياً في عهده ، وإننا نجد صدق هذا في قوله : ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥م:٤٣٨/١٠)

وفي مقابل حرص الرسول بتوطيد صفة الرحمة عند الصحابة ، فإنه عمل على تحذير اتباعها من القسوة ، وحذّر كل من لم ينبض قلبه

بالرحمة ولم يتخذها شعاراً للحياة كلها فإنه بعيد من رحمة الله ، وفي هذا يقول الرسول : ((لاتنزع الرحمة إلا من شقي)) (الترمذي ، ١٣٩٨ هـ ٤:/٢٨٥)

وانطلاقاً من هذه التوجيهات التي وجهت إليه العهد النبوي نستطيع القول ان المعلم أثناء قيامه بمهنة التعليم يجب عليه أن يكون رحيماً بالمتعلمين عطوفاً عليهم ، فالمعلم حين التزامه بذلك فإنه يسهل على نفسه اموراً كثيرة تساعده على النجاح في مهنته وبالتالي تتحقق جميع الأهداف المرسومة للعملية التعليمية.

٧) العدل بين المتعلمين

إن المتتبع لمنهج هذا العهد النبوي نجده أكّد على هذا الصفة بنفس القدر الذي أكده القرآن الكريم .

ولقد تكرر الأمر بالعدل في البيان النبوي بصور مختلفة وأساليب متعددة ولاسيما ما كان تحذيراً عن الميل إلى القرابة وأهل المودة، ففي سنة الرسول قوله : ((إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزوجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا)) (مسلم،١٣٧٥هـ:٢١١/١٢) وأيضاً قوله : ((سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ..)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥م:١١٢/١٢)

مما سبق نستطيع القول بأن المعلم مطالب بأن يكون متصفاً بهذه الصفة ومتمسكاً بها وأن يكون عادلاً بين طلابه لا يميل إلى فئة منهم ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالحق ، وبما يستحق كل طالب حسب عمله ومواهبه، خاصة أنه تبين لنا ان الالتزام بهذه الصفة يعد سبباً في إشاعة الطمأنينة في النفوس وعنصراً أساسياً لجعلها أكثر استجابة للحقائق والمفاهيم الإسلامية . (انظر : وزّان ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ص ١٠٧-١٢٤)

٢,٨,٤ الصفات المهنية

إن أهمية وضرورة الصفات المهنية في العهد النبوي قد أكّد عليه وأعطته جانباً كبيراً من الأهمية ، ولعل قول الرسول : ((الماهر بالقرآن

مع السفرة الكرام البررة)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ -١٩٥م: ١٣/ ٥١٨) يمثل تصريحاً واضحاً لمدى الاهتمام بالصفات المهنية التي ينبغي أن يتمكن منها أثناء قيامه بالتعليم ، والعهد النبوي حين يحرص على هذه الصفات فإن ذلك يعود إلى ادراكه بأن " المعلم يجب أن يسعى إلى مساعدة التلاميذ على التحول من السلبية إلى الإيجابية ومن الجمود إلى الفعالية في مختلف المواقف التعليمية ، إذ لم يعد صمت التلاميذ وسكوتهم واستماعهم لشرح المعلم معياراً لمدى كفاءته ، ولم يعد المعلم ناقلاً للمعرفة ، وإنما اصبح معلماً مسؤولاً عن تعليم التلاميذ وتعديل سلوكهم في الاتجاه المرغوب فيه " (اللقاني، ١٩٨٣م:ص١٣)

وبناءً على ذلك فإننا سنوضح الصفات المهنية الذي وجه إليها العهد النبوي وحرص على تدعيمها لدى كل مَن يتولى العملية التعليمية ، وبيان ذلك على النحو التالي: (انظر : وزّان ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ص ١٢٤-١٣٧)

١) تعريف طرق التدريس المختلفة في عهده ﷺ

إن العهد النبوي حين يركز على هذه الصفة فهو يريد تسهيل العلم على الصحابة وتشويقهم إليه ، ولهذا نجد الرسول يقول : ((يسروا ولاتعسروا بشروا ولاتنفروا)) (ابن حجر، ١٣٧٨هـ-١٩٥م:١٦٣/٢) وقوله : ((إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتوكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين فإذا اتوكم فاستوصوا بهم خيراً)) (الترمذي،١٣٩٨ هـ:٣٠/٥)

من هنا نستطيع القول إلى أن المعلم لابد وأن يلتزم بهذه الصفة ويتمسك بها ، ذلك أن تعرف هذه الصفة والتمكن منها يعد أساساً " لتنمية قدرة المعلم على الاستفادة من دراسة الطرق المختلفة ، بحيث يأخذ مزايا هذه الطريقة ويستفيد من روحها ويتخلص من عيوبها ويكيفها طبقاً لمقتضيات الظروف والمناسبات" (الدمرداش،١٩٥٦ م:ص١٧) وكذلك فنحن حينما نوجه المعلم إلى ضرورة تعرف طرق تدريس متنوعة فإنما ذلك لأننا نريد معلم الدين الإسلامي أن يخرج لنا ذلك المسلم الذي يفخر بإسلامه ويعتز بعقيدته ويطبق شعائره عن يقين .

٢) التمكن من المادة العلمية

إن من تأكيدات العهد النبوي على ضرورة توافر هذه الصفة لدى مَن يتولون مهام مهنة التعليم ما قاله الرسول : ((مثل ما بعثني الله به من

الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها تقيه قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به))(ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:١٧٥/١) وكذا نجد قوله : ((الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)) (الترمذي، ١٣٩٨هـ: ٤٩/٥)

ونستطيع القول إن التمكن من المادة العلمية أمر ضروري للنجاح في مهنة التعليم إذ قد ثبت أن قصور علم المعلم يجد من انطلاقته في هذه المهنة ويؤدي وقوعه في أخطاء كثيرة تعوق العملية التعليمية ، ومن غير شك فإن " كثرة الأخطاء العلمية عند المعلم تقلل من ثقى الطلاب بمعلمهم وتؤدي إلى استهتارهم به وبما يدعوا إليه من الفهم والاتقان العلمي والحفظ والتطبيق ، وقد يؤدي ذلك إلى شك الطلاب بما يعلمهم إياه فلا يستفيدون منه شيئاً "(النحلاوي،١٤٠٣هـ:ص١٥٧)

٣) فهم طبيعة المتعلمين

إن العهد النبوي هداية للناس جميعاً على اختلاف خصائصهم وقدراتهم النفسية والطبيعية ، ولم تكن لفئة منهم دون فئة ، اقتضت الواقعية في أسسها أن تراعي كل صنف من أصناف الناس باعطائه ما يناسبه من بياناتها التعليمية ، ولعلنا نستطيع أن نكتشف هذه الواقعية في مراعاة خصائص المتعلمين من خلال قوله : ((ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم)) (ابن حجر ، ١٣٧٨ هـ-١٩٥٩م : ٢٢٥/١) ، والعهد النبوي في حرصه على مراعاة الطبيعة الإنسانية إنما يعمل على تأكيد ما وجه إليه التشريع الإسلامي " فقد وضع الله بين يدي المسلمين القواعد العامة للواقعية في التكاليف بالأعمال ، وفي تحديد مناهج الحياة للناس حتى يشهدوا بهديها ويتخذوها أساساً لكل ما يستطيعونه من أحكام تشريعية ومناهج علمية " (الميداني،د.ت:ص١٩٢) وفي هذا المعنى نجد قول الحق تبارك وتعالى :﴿ لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [سورة البقرة :الآية٢٨٦]

ونستطيع القول إن المعلم مطالب بهذه الصفة ، ومطالب بأن يجتهد بمقتضاها على تقريب المعرفة إلى ادراك المتعلم أخذاً بنظر الاعتبار

عمره ومقدار نضجه اللغوي والعقلي ثم التدرج معه في المعلومات من البسيط إلى المعقد ، ذلك ان مراعاة حال المتعلم تعتبر ضرورة ملحة تفرضها فطرته ، وتفرضها طبيعة المهنة التعليمية .

٤) التمكن من مهارات وكفايات التعليم

مما يوضح حرص العهد النبوي بضرورة التمكن من مهارات التعليم قوله : ((ليؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى)) (أحمد بن حنبل،١٣١٣هـ:٣٧٩/١) فمن خلال الحديث ندرك أن الرسول حدد معالم المسلم بأنها " هي الشخصية المتقنة لأنها مدعوة إلى الإتقان في كافة انشطتها في الحياة عبادة أو عملاً تعلماً أو تعليماً)) (عثمان ، ١٩٧٩م : ص٥٣)

ونستطيع القول بأن المعلم في معناه الحقيقي في الفكر الإسلامي هو عالم بالضرورة على الأقل فيما يقوم على تعليمه ، ولا يمكن أن يتصور أن يكون هناك معلم بدون أساس علمي يسنده في تعليمه ، وليس هناك انسان عامل يقدم على عمل التعلم والارشاد والتوجيه وغيرها من أوجه النشاط المرتبطة بوظيفة المعلم فينصب من نفسه معلماً إلا إذا كان له الأساس العلمي والمهارة الفائقة التي تؤهله لذلك . (انظر : وزّان ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ص ١٢٤-١٣٧)

٣,٤,٨ الصفات الإجتماعية

إن مما يؤكد هذا الحرص في العهد النبوي تلك النصوص الكثيرة التي حفلت بها دواوين السنة المطهرة والتي منها قوله : ((لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:٥٧/١) وقوله : ((المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه)) (ابن حجر، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:٥٣/١)

ومما يدل على اهتمام العهد النبوي بالنواحي الإجتماعية والسعي عاى توطيدها قوله : ((الرَّاحمون يرحمهم الرحمن ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء)) (ابو داؤد،١٣٧١هـ:٢٨٥/٤) هذا طرف من هدي العهد النبوي في الاهتمام بالمجتمع ، وإنا لنجد فيه دعامة قوية للحياة الإجتماعية التي توثق الصلات بين المسلمين وتجعل منهم وحدة متماسكة متعاونة على البر والتقوى .

ولهذا سنوضح الصفات الاجتماعية اللازمة للمعلم وفقاً لما أقرته العهد النبوي ، وسيكون ذلك على النحو التالي : (انظر : وزّان ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م : ص ١٣٧-١٤٨)

١) الروح الإجتماعية

إن العهد النبوي حينما يهتم بصفة الروح الإجتماعية لدى المعلم فإنه يريد أن يحقق " معنيين رئيسيين أولهما : تفجير منابع الخير في النفس البشرية ، وثانيهما : ربط المجتمع برباط الحب والمودة والإخاء " (قطب، ١٩٨٧م : ص١٠٨)

ومن هنا نجده يسعى دائماً إلى إيجاد المواقف التي توطن الروح الإجتماعية ، ويؤكد ذلك قول علي في وصفه : ((كان أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة واكرمهم عشرة))(اليحصبي ، ١٩٧٩م:١١٩/١).

ومما يؤكد هذا الوصف ويوضح حرص الرسول على تنمية الروح الإجتماعية قوله : ((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)) (أحمد ابن حنبل ،١٣١٣هـ:٤٢/٢) ، وعن أنس بن مالك قال : ((كان رسول الله يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير ما فعل النفير)) (ابن ماجه ، ١٩٥٣م :١٢٢٦/٢)

وبهذه الروح الإجتماعية كان الرسول يعلم أصحابه ، وبهذه الروح استطاع أن يستقطب عقول الصحابة ويستهوي أنفسهم إلى فعل الخير والبعد عن الرذائل ، والرسول بمنهجه هذا يدرك أن الروح الإجتماعية هي وحدها يمكن أن يقوم عليها التعليم الحي القوي المتماسك .

ومن هذا المنطلق يجب على المعلم لكي ينجح في مهنته أن يلتزم بهذه الصفة إذ قد تبينا فعاليتها في العملية التعليمية ، وتأكد لنا أن الروح الإجتماعية تعد ثمرة من ثمرات الوحدة الإنسانية وهي التي تنظم حياة المجتمع الإسلامي في جميع قطاعاته ، ولهذا ينبغي أن يدرك المعلم هذه المعاني الكامنة في الروح الإجتماعية ، ويجعل منهجه وطريقته في العملية التعليمية قائماً على أساسها .

٢) الخبرة الإجتماعية

ومما يؤكد حرص العهد النبوي على الخبرة الإجتماعية في التعليم ما رواه قيس بن عبادة قال: ((كنت جالساً في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع ، فقالوا : هذا رجل من أهل الجنة فصلى ركعتين تجوز فيهما ، ثم خرج فتبعته فقلت : إنك حين دخلت المسجد قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، قال : والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لايعلم)) (ابن حجر،١٣٧٨هـ-١٩٥٩م:١٢٩/٧) وعن عائشة : ((أن النبي سمع أصواتاً فقالوا : ما هذا الصوت قالوا : النخل يؤبرونها فقال : لو لم يفعلوا لصلح فلم يؤبروا عامئذ، فصار شيصاً فذكروا للنبي فقال : إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به)) (ابن ماجه،١٩٥٣م:٨٢٥/٢) وهذه القصة واضحة الدلالة فيما تركه الرسول للناس من أمور يتصرفون فيها بمعرفتهم ،لأنهم أعلم بها واخبر بدقائقها إنها المسائل العلمية الفنية التطبيقية التي تتناولها خبرة الناس في الأرض.

ونستخلص إلى أن المعلم وهو يمارس عمله في التعليم لايمكن له الاستغناء عن الخبرة الاجتماعية ، خاصة إننا نعلم أن هناك الكثير من الحقائق التي يعلمها للمتعلمين لها ارتباط قوي جداً بالحياة الاجتماعية بكل جوانبها ، وهذا وحده يكفي لأن يكون المعلم خبيراً ليسهل عملية التعلم وليحقق الأهداف المنشودة منها .

٣) المظهر الحسن

إن المتتبع لأبعاد منهج العهد النبوي يجد أنه أدرك قيمة وفاعلية المظهر الحسن ومدى تأثيره على العملية التعليمية ، وهنا أخذ العهد النبوي على عاتقه توضيح مقومات المظهر الحسن وذلك من قول الرسول : ((المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) (مسلم ، ١٣٧٥هـ : ٢١٥/١٦) ففي الحديث إشارة إلى اهتمام الرسول بالصحة العامة للإنسان إيماناً منه بأن المعلم لايمكن أن تتوافر فيه عناصر الحياة السليمة والأداء الجيد والطاقات الحيوية المؤثرة في مهنة التعليم إلا إذا سادت معالم التعليم الصحية في شخصيته وطبقها تطبيقاً عملياً ، ولقد بلغ من اهتمامه بالصحة أنه كان يقول : ((سلوا الله العافية والمعافاة فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة)) (ابن ماجة ،١٩٥٣م:١٢٦٥/٢) ، ومن معاني اهتمام العهد النبوي بالمظهر الحسن للصحابة جميعاً وللمعلم على وجه الخصوص توجيهها إلى النظافة والعناية بها ، وفي هذا السياق نجد الرسول : ((إن الله طيب يحب الطيب ونظيف يحب النظافة)) (الترمذي،

١٣٩٨هـ:١٠٤/٥) ، والرسول حينما يوجه إلى ذلك فهو يؤكد ما دعا إليه القرآن الكريم حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [سورة المدثر:الآية ٤] وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [سورة التوبة:الآية ١٠٨] كما أن الرسول يريد أن يثبت أيضاً القذارة منافية للآداب وللمعاني الاجتماعية والجمالية معاً ، ومن معاني اهتمام عهد النبوة بالمظهر الحسن ندبه إلى نظافة أجزاء البدن ، إذ قد حثّ على الحلاقة وتقليم الأظافر، فقد جاء في الحديث الشريف قوله : ((خمس من الفطرة الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر)) (الترمذي ، ١٣٩٨هـ:٨٥/٥) ففي الحديث إشارة إلى أن المعلم مطالب بتطبيق هذه التوجيهات على نحو سليم لكونها من الأمور الهامة الي تؤدي إلى تكامل شخصية المعلم وظهوره بالمظهر الحسن المقبول .

ونستخلص إلى أنه ليس ثمة شئ من الشك في ان التزام المعلم بالمظهر الحسن أثناء قيامه بمهام مهنة التعليم يساعده على النجاح في هذه المهنة ويجعله مقبولاً عند الآخرين ، لكن مما تجدر الاشارة إليه أن مراعاة هذه الصفة ينبغي ألا تكون النظرة إليها بصورة فيها تطرف أو مغالاة أو خروجاً عن الحد المألوف بل ينبغي أن يكون هناك إتزان في التعامل معها .